فاروق جويدة

قضايا ساخنة .. جداً

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
(القاهرة)

الطبعة الأولى
يناير ١٩٩٧

الغلاف بريشة الفنان / احمد الديب

اهداءات ٢٠٠٠
دار غريب للنشر والتوزيع
القاهرة

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت: ٣٥٤٢٠٧٩

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩١٧٩٥٩

كلمة .. قصيرة جداً

لا أجد عندى شيئاً أقدم به هذا الكتاب..

إنه مجموعة معارك ضارية حاولت فيها أن أتصدى لكثير من جوانب القبح التى أصبحت تحاصرنا من كل اتجاه .. ولقد كان حلم الشاعر عندى وما زال أن أتغنى دائماً بالجمال .. وللجمال .. خاصة أن لدى إحساسا يصل لدرجة اليقين أنى أنتمى لوطن من أجمل أوطان الدنيا وأعرقها تاريخاً .. وقد شاء ت الأقدار والصدف أن أجد نفسى مضطراً لأن أحمل قلم الكاتب والشاعر معاً لكى أخوض معركة شرسة ضد القبح فى كثير من أشكاله وألوانه ورموزه .. ابتداء بتشويه هويتنا.. وطمس معالم ثقافتنا .. وانتهاء بتدمير كل رمز جميل شامخ فى تاريخنا .. ولابد أن أعترف أنها مواجهة فى غاية الشراسه ؛ لأنها معركة غير متكافئة .. فماذا يفعل القلم أمام جحافل القبح بكل وسائلها التى ينقصها عادة نبل الفرسان .

هذه بعض فصول من المعارك التى نشرت فى مقالات بجريدة الأهرام والتى أرجو أن تحقق هدفها فى يوم من الأيام .. فإذا حققت هدفها أكون قد نجحت .. وإذا لم تحقق هدفها فسوف تضىء الطريق لكل من يحاول أن يغرس فى تراب هذا الوطن نبتة جميلة شامخة كتاريخنا العريق ..

ولن أفقد إيمانى بأن جحافل القبح التى تحاصرنا لن يبقى منها غير الرماد ، وأن مصر الوطن الجميل الآمن سوف يظل دائماً مهداً للشموخ والأصالة والجمال .

فاروق جويدة

القاهرة ، يناير ١٩٩٧

ما هى الثقافة

أصبح من الصعب الآن أن ننظر للثقافة بمفهومها البسيط الذى انحصر يوماً فى الكتاب أو اللوحة أو الرواية وقصيدة الشعر .. ولكن مفهوم الثقافة فى القرن العشرين اتسع ليشمل معظم جوانب الحياة الفكرية والروحية والاجتماعية .. وكثيراً من الجوانب المادية ...

وأصبح تعريف الثقافة فى معظم دوائر المعارف الكبرى بلغاتها المختلفة أنها أسلوب الحياة السائد فى أى مجتمع بشرى .. والثقافة هى التى تميز المجتمعات البشرية عن التجمعات الحيوانية ، ولهذا فهى تمثل عملية تنمية عامة على المستوى الفكرى والروحى والجمالى ؛ لتعكس فى النهاية حياة الشعوب .. إنها طريقة منظمة للحياة نضمن من خلالها تطوير الملكات الروحية والعقلية من خلال نسق اجتماعى ودينى وفنى ...

ومن خلال هذا التعريف الواسع لمفهوم الثقافة الذى ساد هذا القرن كله أصبحت الثقافة تمثل حياة المجتمع ومستوى تطوره ونموه وانطلاقه.. بل إنها فى أحيان كثيرة شملت الجوانب المادية فى حياة الناس ملبساً ومأكلاً وسلوكاً .. وفى ظل هذه المفاهيم المعاصرة للثقافة أصبح تراث الأمة جانباً مهماً من جوانب مكوناتها ، بما فى ذلك التاريخ بكل رموزه المعنوية والمادية .. وأصبح من الصعب جداً أن نفرق بين رمز معنوى يتجسد فى شخص إنسان ورمز مادى يتجسد فى بناء أو أثر أو قصر من القصور .. .

فإذا كان تاريخ الشعب مجموعة من الأحداث والشخصيات والمواقف التى تمثل ذاكرة الأمة وضميرها وماضيها الحى .. فإن التراث المعمارى للأمة يمثل ذاكرتها الحية وتاريخها الجمالى .. وهو جزء أساسى من مقوماتها الحضارية ، ومن الصعب أن نفصل الرموز التى تمثلت فى البشر عن الرموز التى انعكست فى العمارة لأنها فى النهاية جزء من الإنجاز البشرى للشعب .

ولهذا فإن أى اعتداء على قدسية التاريخ هو انتهاك لثقافة الشعب واعتداء على ذاكرته .. .

من هنا فإن ما يحدث لآثار مصر الآن سواء كانت آثاراً تاريخية قديمة أو آثاراً معمارية من العصور الحديثة، إنما يهدف إلى قطع جذورنا

وتواصلنا مع الماضى .. إن الآثار هى رصيدنا الحضارى فى ظل غزو بربرى يحاول اقتلاع جذور التاريخ فى العالم كله من أجل سيادة وانفراد الحضارة المعاصرة مهما كانت جوانب القبح والسطحية والتسلط فيها .

لقد كان السائد دائماً أن الحضارات تضيف لبعضها البعض على أساس أنها جميعاً بناء إنسانى متكامل .. وفى ظل أسوأ أنواع الحروب كان هناك حرص شديد على حماية التراث الحضارى للبشرية مهما كانت جوانب الخلاف بينها لأن الحضارات ملك للإنسان فى كل زمان ومكان...

ولكننا الآن نعيش زماناً غريباً يحاول أن يقتلع جذور العالم كله ليعيد صياغة البشر فى ظل مفاهيم جديدة لا علاقة لها بالتراث أو الجذور أو التواصل مع التاريخ .. ولا تعترف بمنطق الاختلاف والتميز وخصوصية التكوين الحضارى والثقافى بكل شعب .

من هنا فإن هدم قصر فى قاهرة المعز هو فى الحقيقة اقتلاع لجذورنا وامتهان لتاريخنا.. وضياع تمثال أو سرقة أثر هو محاولة لتشويه هويتنا وتغيير ملامحنا .

إن هذا الاعتداء الصارخ على تاريخ مصر رموزاً وأحداثاً وعمارة وآثاراً أكبر جناية فى حق ثقافتنا .. وماذا يبقى لمصر وللمصريين إذا تهاوت قلاع تاريخهم الذى يمثل أقدم حضارات العالم .. .

ومعنى هذا أن تاريخ الأمة واحد من أهم عناصر مكوناتها الثقافية .. التى يجب حمايتها والحرص عليها ..

وحينما يتراجع مستوى اللغة وتفقد أهميتها وتأثيرها فى حياة الشعوب فإن هذا التراجع يهدف فى الأساس إلى تشويه بنائها الثقافى .

وما يحدث للغة العربية الآن فى مدارسنا وجامعاتنا وأجهزة إعلامنا جريمة فى حق ثقافتنا .. عندما تصبح درجات اللغة العربية فى أخطر شهاداتنا الدراسية وهى الثانوية العامة أقل المواد .. وعندما يخطئ فى نطقها كبار المسئولين والإعلاميين وغير الإعلاميين ، حتى بعض المثقفين .. وتصبح غريبة فى بيتها .. فإن هذا امتهان لثقافتنا واعتداء صارخ عليها . . .

وحينما يتراجع دور الفنون فى حياتنا ويصبح هدفه الإسفاف والابتذال فإننا بذلك نخسر رافداً ثقافياً من أخطر وأهم الروافد التى تغذى وجدان الأمة وتصقل مشاعرها .. .

إن انحدار الأغنية والمسرحية والفيلم خسارة ثقافية لا تقل عن هدم القصور وامتهان التاريخ وإهمال اللغة .

إنها جميعاً حلقات متصلة لا يمكن الفصل بينها .. فالأغنية الجميلة الراقية هى التى تشكل وجداناً راقياً ، وهذا ينعكس على سلوكيات الناس .. والمسرحية الساقطة التى تروج للقبح بكل سلبياته

تدمر وجدان الناس فتنحدر سلوكياتهم .. والفيلم الساقط هو الأب الشرعى للسلوك المنحرف .. .

وهذه جميعاً دوائر متصلة تكون فى النهاية هذا النسيج الثقافى الذى يشكل وجدان الأمة .. .

وأى اعتداء على هذه الروافد .. وأى تلويث لها .. هو اعتداء على ثقافتنا وامتهان لها .

وحينما تختل القيم الدينية ويساء فهم الناس للدين أمام الجهل أو الدعوات المضللة تنتشر الخزعبلات ويتراجع دور العقائد الدينية الصحيحة، وتتحول من وسيلة لبناء إنسان أفضل لتصبح وسيلة لتدمير كل شيء أمام الفهم القاصر والإدراك المريض لما تسعى إليه القيم الروحية فى حياة البشر .. وما نراه الآن من أعمال السحر والشعوذة أكبر دليل على ذلك لأن هذا أيضا خلل ثقافى فى الدرجة الأولى لأنه يرتبط بوعى الإنسان ومدى إدراكه للقيم الحقيقية التى تسعى الأديان إلى ترسيخها فى نفوس البشر.. إن الخلل الدينى الذى أصاب الشارع المصرى خلل ثقافى فى الدرجة الأولى .

ولهذا فإن البناء الثقافى لأى شعب من الشعوب يقوم على مجموعة من الأسس يشارك فيها التاريخ والتراث بكل جوانب التواصل فيها مع الماضى ..

وتشارك فيها اللغة بكل رصيدها الفكرى والثقافى والإبداعى ..

وتشارك فيها الفنون بكل التنوع فى عطائها وتواصلها وما تغرسه فى نفوس الناس من قيم جمالية ..

ويشارك فيه الفكر بكل حصاد العقول المستنيرة وعطائها الخلاق ..

وتشارك فيه القيم الروحية بكل جوانب الصفاء والتجرد فيها كعلاقة بين الإنسان وربه هدفها فى النهاية كبح نوازع الشر واقتلاع جذوره بين الناس من أجل الوصول إلى إنسان يدرك قيمة الحق والخير والجمال . . .

وتشارك فى هذا البناء أيضاً تلك السلوكيات الرفيعة التى يكتسبها الإنسان من كل هذه الروافد ، فتنمى فيهُ جوانب التذوق والإحساس بالجمال، والقدرة على التفاعل مع الأشياء والإحساس بها فيهذب نفسه وسلوكه ووسائل تعامله مع العالم حوله .. إن هدف هذه الروافد مجتمعة سواء كانت تاريخاً أو تراثاً أو فكراً أو فناً أو ديناً أو لغة هو تحقيق نوع من التوازن بين عقل الإنسان ووجدانه .. وبين إمكاناته ورغباته .. وبين طموحاته وقدراته .. وبين ما يريد لنفسه وما يريده الآخرون لأنفسهم .. هذه الروافد هى التى تملأ عقل الإنسان ووجدانه وتنعكس على جوانب سلوكه فى الحياة .

وهى بكل تأكيد أهم المكونات الثقافية فى شخصية الإنسان .. .

من أجل هذا تقوم المعارك وتدور الحروب ، وليس هدفها فقط هزيمة عسكرية أو انتصاراً حربياً .. ولكنها تهدف فى الأساس إلى كسر إرادة الإنسان وتشويه قدراته وانتزاع جوانب المقاومة فيه .. وهذه جميعها تقوم وتستند على بنائه الثقافى بما فيه من دين وفن ولغة وتراث وحضارة اكتسبها عبر عصور التاريخ المختلفة .. .

لهذا كله ندافع الآن عن جذورنا الثقافية ، وهى ليست مجرد كتاب أو قصيدة شعر فقط ولكنها تراثنا الحضارى كله ابتداء بتشويه العمارة فى شوارعنا وانتهاء باقتلاع الأشجار من حدائقنا .. .

إننا ندافع عن دورنا الثقافى ، وهو بكل المقاييس دور كبير وخطير فى المنطقة ، بل إنه يعتبر أخطر أدوارنا وأكثرها قيمة وأطولها تاريخاً.. .

إننا نحاول أن ننبه إلى أن هناك من يحاول تشويه ثقافتنا سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد .. وحتى لا نقع فى فخ التفسير التآمرى لكل الأحداث فإن هناك دخاناً كثيفاً فى الأفق ، وليس معنى ذلك أن هناك من أشعل حريقاً عن قصد .. ولكن المؤكد أن هناك حريقاً يخرج منه هذا الدخان .. .

وعندما يقف الإنسان ويرصد ما يحدث للقصور والآثار والتاريخ

والفنون واللغة ، والخلل الذى أصابها جميعاً ، لابد أن يتسا ءل : ما هى أسباب ذلك كله ؟.. ولماذا يحدث الآن .

والشئ الغريب أن هناك كلمة أضيفت إلى وزارة الثقافة منذ عامين سمعناها فقط فى التشكيل الوزارى ولم نسمعها بعد ذلك .. كان اسمها وزارة الثقافة والتنسيق الحضارى .. أى أننا ندرك قيمة هذا الجانب ليس فى حياتنا الثقافية فقط ولكن فى حياتنا العامة .. ولاشك أن ذلك كان يعكس فهما واضحاً لتراجع القيم الجمالية فى حياتنا سلوكاً وعملاً وإحساساً .

وسرعان ما سقط الجانب الجمالى من وزارة الثقافة ليقتلع الطوفان التجارى أمامه كل شيء فتهدم القصور.. وتباع الآثار .. وتنحدر الفنون.. وتتهاوى قلاع اللغة ، ويصاب العقل المصرى بأكبر نكسة فى تاريخنا الحديث .. وقبل هذا كله تفسد أذواق الناس وتتشوه سلوكياتهم.. .

من هنا فإن الدفاع عن ثقافة مصر هو دفاع عن وجودها ودورها وكيانها العريق ، وهو دفاع عن أجمل وجوهها الذى اكتسب دائماً احترام العالم وتقديره ..

ولهذا يجب أن نتصدى جميعاً للدفاع عن هويتنا وكياننا .. وحضارتنا لأن ثقافة مصر هى أغلى وأعز ما تملك .. وأمة بلا ثقافة بناء شامخ بلا بشر .. .

إعدام كوبرى أبو العـــلا ..

أخيراً استقر الرأى على إعدام كوبرى أبو العلا ، وسوف ينتقل جثمانه بعد صدور الحكم إلى مثواه الأخير فى محلات الخردة فى بولاق.. وسوف يتصدر جنازة الفقيد كل أنصار القبح فى مصر وما أكثرهم الآن ، وسوف تشارك فى الجنازة ميليشيات قطع الأشجار وقوات اغتيال الجمال وردم النهر الخالد ، وجمعيات الخوازيق الخرسانية وجميع الهيئات والمؤسسات التابعة لقطاع نشر القبح فى مصر التى كانت يوماً محروسة .. .

أخيراً سيتم عرض كوبرى أبو العلا لتجار الخردة فى مزاد علنى وعلى كل من له ذكرى مع هذا الكوبرى الجميل أن يلقى عليه نظرة وداع أخيرة قبل أن تلتهم النيران أيام عمرنا الجميل .

على هذا الكوبرى ذكريات شعب كان يوماً عاشقاً للجمال .. وعليه عبرت أم كلثوم متجهة إلى فيلتها فى الزمالك قبل هدمها وهى تدندن هلت ليالى القمر.. وغنى عبد الوهاب للنهر الخالد .. وشدا عبدالحليم فى يوم فى شهر فى سنة .. وانتقل عبر هذا الكوبرى رجال مصر الكبار فى الأدب والسياسة والفنون .. .

ومنذ عام ١٩٦٩ وقصة كوبرى أبو العلا حديث الناس والصحافة..والمسئولين .. فقد ساءت صحته بعد قيام ثورة يوليو المباركة حيث لم تتم أية أعمال فى صيانته منذ عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٦٩ .. وترتب على ذلك انهيار جزء من الكوبرى نتيجة عدم تصريف المياه التى أدت إلى تآكل أجزاء كبيرة من الكوبرى .

والشيء المؤلم فى قصة اغتيال كوبرى أبو العلا أخيراً أن فرنسا طلبت أخيراً شراء الكوبرى وفكه وترحيله إلى باريس لكى يعرض فيها كواحد من آثار المهندس الفرنسى الشهير «جوستاف إيفل» الذى قام بتصميم الكوبرى ضمن أربعة أعمال هامة قام بها فى حياته ومنها برج إيفل الذى يحمل اسمه حتى الآن فى قلب العاصمة الفرنسية .

ومن حق فرنسا أن تطالب بالكوبرى من أجل ذكرى مهندسها العملاق .. وليس هذا غريباً ، فإن المسلة المصرية تأخذ مكانها فى أجمل ميادين عاصمة النور.. ولو بقيت فى مصر لكانت الآن معروضة للبيع

ضمن آثار مصر المهربة .. وربما بيعت فى مزاد واحد مع كوبرى أبو العلا المسكين .

ومنذ سنوات طلبت إيطاليا شراء تمثال الخديوى إسماعيل والموجود الآن فى واحدة من أكبر «الخرابات» فى مدينة الإسكندرية .. وعندما علم الإيطاليون أن الحكومة المصرية تريد تحويل التمثال العريق إلى عملات نحاسية طلبت استرداده فقد جاء إلى مصر هدية من إيطاليا .. ورأى الإيطاليون أن من حقهم استرداد هديتهم ما دمنا لا نعرف قيمتها.

وكان من المفروض أن ينتقل تمثال إسماعيل إلى دار الأوبرا ، وحتى الآن ما زال التمثال نائماً فى إحدى خرابات مدينة الإسكندرية لأنه رمز من رموز العهد البائد.

وكوبرى أبو العلا الذى يحمل اسم أحد أولياء الله الصالحين ، وكان يعيش فى بولاق فى عام ١٨٠٩ تغير وأطلق عليه اسم كوبرى ٢٦ يوليو تيمناً بالثورة التى لم يشهد فى عهدها عملية صيانة واحدة .

وقد تكلف إنشاء الكوبرى - الذى أقامه الإنجليز-مائة ألف جنيه وحصل المهندس الفرنسى الذى قام بتصميمه على مبلغ ثلاثة آلاف جنيه وقد تم إنشاء الأجزاء الحديدية للكوبرى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونقلت إلى مصر وتم تركيبها .

ومنذ عام ١٩٦٨ بدأ الحديث عن ضرورة إعدام كوبرى أبو العلا عندما أكدت لجنة من مهندسى محافظة القاهرة فى ذلك الوقت أن العمر الافتراضى للكوبرى قد انتهى .. ورغم هذا ما زال الكوبرى قائماً والسيارات تعبر عليه رغم فتوى محافظة القاهرة وحكمها الجائر بإعدام الكوبرى منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً .

ولكن أحد كبار خبراء الكبارى قال بعد ذلك أن الكوبرى يمكن أن يتحمل مرور دبابات محمولة على جرارات زنة كل منها ٧٦ طناً .. وهذا الخبير -د. شفيق عجور - هو الذى أشرف على إصلاح الكوبرى فى عام ١٩٦٩ .

ومع انتهاء المرحلة الأولى من كوبرى مايو برزت مرة أخرى فكرة إعدام كوبرى أبو العلا لاستكمال المرحلة الثانية من إنشاءات كوبرى مايو. وهنا تدخلت هيئة الآثار وصدر قرار وزارى باعتبار الكوبرى أثراً تاريخياً يجب الحفاظ عليه .. وتدخل سفير فرنسا على اعتبار أن الكوبرى يمثل قيمة تاريخية خاصة لأحد رموز فرنسا المعمارية .

ولكن الأغرب من هذا كله أن خبراء الكبارى من ألمانيا وأمريكا قاموا بمعاينة «١٤ كوبرى» فى مصر بعد زلزال أكتوبر من بينها كوبرى أبو العلا وقرروا أنها جميعاً سليمة .وعندما كان الدكتور محمود شريف محافظاً للقاهرة فكر فى تحويل الكوبرى إلى مرسم مفتوح للفنانين ،

وقد رحب الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة بهذه الفكرة وبدأ د. أحمد نوار فى الإعداد لهذا العمل الحضارى الجميل .

وكان هناك اقتراح آخر بتحويل سور الأزبكية القديم إلى هذا المكان بحيث تتحول أسواره إلى مكتبة كبيرة لهواة المعرفة فى مصر.

كانت هناك اقتراحات كثيرة للاستفادة من كوبرى أبو العلا ، وأقلها أهمية فى أن يبقى للمشاة حيث إنه الوسيلة الوحيدة التى تربط بين بولاق والزمالك إلا إذا كانت الحكومة ستعطى سيارة لكل من يذهب إلى الزمالك أو يأتى منها ..أم أنه لم يعد هناك طريق للسائرين على أقدامهم فى هذا البلد .

لا أدرى هل امازال أمامنا وقت للطعن فى حكم الإعدام الذى أصدرته محافظة القاهرة على كوبرى أبو العلا.. أم أن الوقت أصبح متأخراً .. وهل يجوز أن تتسرب الأمور من بين أيدينا بهذه الصورة حتى تطلب فرنسا شراء الكوبرى لأننا لا نعرف قيمته .. وإذا كان ولابد من الإعدام .. هل نبيع الكوبرى لتجار الخردة فى بولاق أم نبيعه لفرنسا ليعرض بجوار برج إيفل فى قلب باريس .

وإذا كنا لا ندرك قيمته التاريخية فهل يمكن أن نعطى الفرصة لمن يدركون قيمة الأشياء .. هل نعيد لإيطاليا تمثال إسماعيل .. ونعيد إلى فرنسا كوبرى أبو العلا وفاء لذكرى واحد من أبنائها .

رغم مرارة القرار أنا أفضل أن تعود الأشياء لأصحابها ما دمنا لا ندرك قيمتها .

وماذا يبقى لنا إذاً .... هذه جولة جديدة سوف يكسبها سماسرة القبح فى مصر ، وللأسف الشديد فقد كسبوا حتى الآن جولات كثيرة .. وأخشى ما أخشاه أن تنتهى المباراة لصالحهم .

نظرة وداع أخيرة ..

فى حفل وداع بسيط .. وبلا ضجيج أوصخب .. وبلا لافتات أو قصارى زرع من تلك التى تستأجرها الوزارات فى المناسبات الوطنية وغير الوطنية.. وبلا أفواج من المستقبلين والمودعين الذين تمتلئ بهم كل يوم شاشات التليفزيون قررت بينى وبين نفسى أن أقيم حفل وداع بسيطا للراحل العظيم كوبرى أبو العلا.. .

ولا أدرى ما هو السر الذى يربط بينى وبين كبارى القاهرة العريقة.. ابتداء بكوبرى عباس وتاريخه الحافل مروراً على كوبرى الجامعة.. بكل رصيد الذكريات فيه .. ثم قصر النيل .. وصولاً إلى أبو العلا.. كلها كانت تمثل عند جيلى سنوات العمر الجميل .. .

شهدت أحلام صبانا عندما جئنا من أقاصى قرى مصر إلى قاهرة المعز بكل صخبها وضجيج الناس فيها .. كانت أحلامنا يومها بعرض هذا الكون اتساعاً .. وكانت جميعاً أحلاماً بريئة وجريئة تسبح فى عالم

من المجردات .. أن نصير كتاباً .. أو شعراء .. أو أصحاب فكر وقضايا.. أن تكون لدينا مكتبة فيها أحدث ما أخرجت المطابع .. أن نرى النيل أكثر عطاء .. وأن نرى الناس أكثر رقياً .. كنا بسطاء .. وكانت الحياة بسيطة مثل أحلامنا ، قوية مثل عزائمنا.

حمل كوبرى أبو العلا كثيراً من ذكريات شبابنا .. مشينا عليه ونحن نردد «هلت ليالى القمر»..«ياللى كان يشجيك أنينى» ..« غلبت أصالح فى روحى » .. ومعه عشنا أجمل لحظات عمرنا مع صوت أم كلثوم.

وفيه غنينا النهر الخالد .. والجندول وهمسة حائرة .. وطفنا مع عبد الوهاب .

ثم كانت الليالى .. وفى يوم فى شهر فى سنة ، وصافينى مره .. ونغنى والمغنى يطول مع العندليب .. .

ومع كوبرى أبو العلا كانت الأحداث العظيمة فى حياتنا ... وكانت أيضاً الجراح العميقة .. على كل المستويات فى السياسة.. وفى الحلم .. وفى الحب .. .

مشينا عليه ونحن نردد هتافات الثورة فى أمجادها ... وبكينا عليه ونحن نداوى جراحها وجراحنا فى انكسارها.. وشاهدنا عليه وجوها كثيرة .. من أخذ بيدنا .. ومن نصب علينا.. ومن باع لنا «الترماى» رغم أننا نقف فى منتصف النهر العريق .. .

وحملت مياه النهر هؤلاء جميعاً .. من أعطى .. ومن تخاذل .. ومن نهب.. ومن باع .. ويبقى النيل شامخاً شاهداً على كل العصور.. .

كانت هذه الأفكار جميعها تدور فى رأسى وأنا اقترب من مايسبيرو .. ونظرت للتليفزيون .. وكدت أصرخ فى أحد العاملين فيه أن يأتى ومعه كاميرا صغيرة ليسجل اللحظات الأخيرة فى عمر كوبرى أبو العلا.

بمقياس الحضارة ... هو يستحق أن نسجل لحظاته الأخيرة ونحن شعب كان يوماً يدرك قيمة الحضارة .. .

بمقياس الذكريات .. آه من تلال الذكريات التى مرت على هذا الكوبرى خلال مائة عام .. إنها تاريخ مصر الحديث بكل الضوء فيه والظلال .. .

بمقياس الجوار .. إن المسافة بين التليفزيون وكوبرى أبو العلا قليلة جداً .. وكم شهد هذا الكوبرى مرور الفنانين والكتاب الكبار وهم فى طريقهم إلى مبنى التليفزيون حيث التألق والبريق والثقافة .

ولم أحاول أن أزعج أحداً فى التليفزيون فى هذا الوقت المتأخر من الليل ... ونظرت إلى مبنى وزارة الخارجية .. وقلت لنفسى : لو أن السيد عمرو موسى فى مكتبه الآن لطلبت منه أن يذهب معى لنودع معاً كوبرى أبو العلا فهو رجل عاشق للتاريخ .. والحضارة .. ويدرك أقدار الناس والأشياء .

حينما اقتربت من الكوبرى وجدت دمعتين حائرتين فى عينى .. هناك مسطح عريض من الخشب الأبيض يلف المكان ، وتغيرت حركة المرور ولم يعد أحد يقترب من الكوبرى العريق الذى راح فى صمت مهيب ..

وكان الخشب الأبيض يغطى وجه الكوبرى وكأنه الكفن الذى يغطى جسد الميت .. واقتربت قليلاً وكل شىء فى كيانى يرتجف .

قلت للكوبرى : أعرف أنها لحظات صعبة .. ولكننى كنت حريصاً أن أودعك .. لقد عشت معك أجمل لحظات العمر أحلاماً وجمالاً وشموخاً .. وأنا حزين أن أراك هكذا يحيط بك الصمت من كل مكان .

قال : إننى حزين أن أودع هؤلاء البسطاء الذى كنت أحملهم على كتفى كل صباح يعبرون من هنا لهناك.. التلاميذ الصغار الذين كنت أحتضنهم وأحميهم من السيارات المجنونة ..

وأصحاب «البسكلتات» من حاملى الألبان وهم يسرعون بحثاً عن الرزق .. والبوابين والعمال .. لا أدرى أين يذهب هؤلاء .. إننى أقدر قرار الحكومة .. فلكل أجل كتاب .. ولكن .. ألم يكن هناك طريق آخر غير التضحية بى .. حملت على أكتافى كل مشاكل هذه العاصمة مائة عام.. وكنت أستطيع أن أتحمل مائة عام أخرى .. عندما جاء الزلزال اقترب منى قليلاً .. وصرخت فيه .. إنك لن تستطيع أن

تفعل معى شيئاً .. ولم يفعل أى شىء ... حتى الزلزال الأخير نظرت إليه ساخراً وضحكت وفى خجل عبر .. .

قلت : وما الذى يحزنك الآن .. ؟

قال : ما أسمعه عن شقيقى الذى يسكن فى باريس على نهر السين، وكل الذى يلقاه هناك من الرعاية والتقدير .. عندما ولدنا معاً منذ ما يقرب من مائة عام كان شقيقى يتفاخر ويقول لى سأكون فى باريس .. وكنت أشد منه فخراً وأنا أقول له .. سأكون فى القاهرة .. أعرق عواصم الكون .. يكفى أننى سأكون بجوار الأهرامات بكل جلالها وشموخها سأعيش مثلها ولن يكفينى ألف عام .. ولم أكن يومها أعرف أننى لن أعيش بينكم طويلاً .

كانت رسائل شقيقى من باريس تؤلمنى .. كان يقول :

بالأمس زينوا جزءاً منى بالذهب .. وقرروا صرف ملايين الفرنكات لصيانتى .. وهناك مئات من الأشجار تحيط بى من كل جانب.. وفى آخر رسالة قال لى : إنهم يحترموننى كثيراً فى باريس .. وتوقفت عند كلمة الاحترام .. وبكيت ..

واقتربت من الكوبرى وأنا أحاول أن أخفف مشاعر حزنه ووجدته ينظر إلى ويقول .. لا أنكر أننى عشت زماناً جميلاً .. شاهدت عصوراً شامخة .. وحملت شخصيات مهمة فى تاريخ هذا البلد .. ولكن كيف

يفـضلون عليّ كـوبرى من الأسـمنت «المضـروب» ، هذه إهانة لا أدرى كيف رضيتها لنفسى .. الموازين اختلت فى هذا البلد .

لقد عشت زماناً جميلاً هنا ..

من أسعد اللحظات التى كنت أعيشها عندما تعود أم كلثوم من حفلتها وأسمعها منتشية تدندن بآخر أغنياتها وهى تتجه بعد منتصف الليل إلى فيلتها فى شارع أبو الفدا .

وفى أحيان كثيرة كان عبد الوهاب يترك سيارته ويتوقف معى فى هذا المكان .. ليغنى للنهر الخالد ..

وعندما غنى العندليب «يا حلو يا اسمر» شكرته لأننى اعتبرت تقديره للنيل تقديراً لى ..

ومنذ سنوات وأنا أشعر أن نهايتى اقتربت كلما سقط رمز من الرموز العظيمة فى مصر ..

ولهذا لم تكن النهاية غريبة .

شعرت بذلك عندما احترقت دار الأوبرا منذ سنوات.. وشعرت بذلك أيضاً عندما احترق قصر الجوهرة .. .

وتأكدت من ذلك عندما وجدت ملامح النيل العريق تختفى وسط غابات من الأبراج السكنية المشوهة والقبيحة ، وكنت أقول إذا كان النيل قد هان عليهم بهذه الصورة فأين أنت من النيل .

وأدركت أن نهايتى اقتربت عندما علمت أن أكثر من ألف قصر قد تم هدمها فى القاهرة وحدها فى ثلاث سنوات .. .

كنت أعلم أن نهايتى اقتربت وأنا أسمع هذه الغربان الشيطانية التى تغنى ويسمعها الناس ... وكنت أتساءل : أين أغنيات أم كلثوم وأين روائع عبد الوهاب والسنباطى ورامى والقصبجى ومأمون الشناوى.. .

كنت أعلم أن نهايتى اقتربت ومساحات القبح تحاصرنى .. أخلاق الناس تغيرت .. وطباعهم ساءت ..

فى الأسبوع الماضى قرأت فى الصحف أن الشرطة عثرت على تمثال كبير لأبو الهول فى صندوق قمامة .. وحمدت الله أن مصيرى أفضل من مصير أبو الهول فمازلت أجلس على شاطئ النيل .

فى كل يوم تظهر فضيحة جديدة حول آثارنا.. لقد أصبحنا حديث العالم ، عصابات فى لندن والسويد وإيطاليا وسويسرا وكندا.. وجميعها تتاجر فى تاريخنا العريق .. إن اللصوص الآن ينامون فى متاحفنا .. ورفات ملوكنا يتاجر فيها المغامرون والسماسرة فى كل بلاد العالم.

وما حدث معى حدث مع الآثار وحدث مع القصور .. وحدث مع الفنون .. وحدث فى أخلاق الناس وسلوكياتهم ..

قلت : وما هو الحل .. ؟

قال : المشكلة ليست فى المبانى والعمارات والكبارى لأن بناءها هو الأسهل .. ولكن المشكلة هى بناء الإنسان ضميراً وسلوكاً وأخلاقاً حينما يموت ضمير الإنسان يموت كل شىء معه ، ولكى نبدأ لابد أن نغرس فى أبنائنا من جديد قيمة الضمير لكى يحبوا وطنهم ويؤمنوا بقيمة كل ذرة تراب فيه ..

حينما هان علينا ماء النيل لوثناه ..

وحينما هانت علينا شواطئه أقمنا عليها أشباحاً خرسانية ..

وعندما هان التاريخ هانت علينا رموزه .

وحينما هان وجدان الناس استباحهم الفن الهابط .

وحينما فرطتم فى القيمة .. هدمتم القصور وشوهتم الحدائق..

ولهذا لن يكون غريباً أن تجىء نهايتى وأنا فى كامل عافيتى..

وضعت وردة صغيرة على كوبرى أبو العلا .. ونظرت إليه نظرة وداع أخيرة ... .

وبكيت ... !!! .

هذا القصر العتيق

لأن كل شيء هان .. ولم يعد لدينا إحساس بقيمة الأشياء .. أماكن وتاريخاً وبشراً .. جاء الدور على قصر محمد على بالمنيل .. هذا الرمز العتيق العريق الذى يضم أندر حديقة للنباتات فى مصر ، والذى كان يوماً مزاراً لأهل الفكر والفن والسياسة .. والذى تحول فى السنوات الأخيرة إلى فندق لإحدى الشركات الفرنسية .. وتحولت حدائقه الجميلة إلى أطلال تبكى على الزمن الجميل ..

هذا القصر تتنازعه الآن أكثر من جهه .. إنه حائر بين وزارة الثقافة والسياحة .. والآثار .. وربما يدخل قريباً أحد المقاولين لينهى الصراع كله ويتحول القصر الجميل إلى مجموعة من الخوازيق الخرسانية التى ملأت حياتنا كآبة وإحباطاً وتتحول قاعته الذهبية الرائعة الجمال إلى شقق للتمليك يسكنها المسئولون والمهربون وتجار المخدرات ..

وكما ضاعت قصور قديمة .. وكما شوهت معاول الهدم أجمل فيلات مصر وقصورها .. يمكن أن يلحق الدمار بهذا الأثر العريق .

لا توجد دولة فى العالم شهدت مذابح لقصورها التاريخية كما حدث لمصر منذ ثورة يوليو حتى الآن .. وكأن هذه القصور كانت جزءاً من العهد البائد يجب أن نتخلص منه رغم أن الاتحاد السوفيتى أبقى على كل أثر من آثار قياصرته القدامى ..

وضاعت قصورنا نحن بين النهب .. والهدم .. وناطحات السحاب وشقق التمليك ذات العشرة الملايين جنيه .

والآن نطرح قضية قصر محمد على قبل أن تلحق به يد الدمار ويصبح ذكرى من ذكريات الأمس مثل كل القصور الضائعة.. الأمر يتطلب فقط قراراً سريعاً وحكيماً بإسناد الإشراف على هذا القصر لجهة واحدة كأثر تاريخى ، وإن كنت فى الحقيقة أرى أن يضاف هذا القصر لمجموعة القصور الملكية التى تستقبل ضيوف مصر وتتبع رئاسة الجمهورية .. إن هذا هو الحل الوحيد لإنقاذ قصر محمد على من صراعات الأجهزة الحكومية المشرفة عليه .

إن القصر يحتاج إلى عمليات ترميم وإنقاذ سريعة .. وهناك اتجاه إلى إضافة أدوار جديدة إلى المبنى العتيق .. كما أن حديقته الجميلة تواجه الآن ظروفاً صعبة ..

والمطلوب الآن وقفة حاسمة حتى لا يضاف قصر محمد على إلى قصور مصر الضائعة .

انقذوا قصر محمد على من سماسرة الهدم وباعة التاريخ وأعداء القيمة فى هذا البلد .

طناش ! !

تناولنا مأساة قصر محمد على بالمنيل والذى انتهى بالفعل عقد تأجيره للشركة الفرنسية .. وتساءلنا على من تقع مسئولية حماية هذا القصر وهو حائر بين الثقافة .. والسياحة .. والآثار ، حيث تمتلك كل جهة من هذه الجهات الثلاث موقعاً فى القصر العتيق ، وكنت اتصور أن يأتينا توضيح من هنا أو هناك حول هذه القضية حتى تطمئن قلوبنا إلى أن هذا الجزء العزيز من تاريخنا لن تلحق به يد الدمار كما لحقت بأشياء كثيرة فى حياتنا .

ويبدو أن معظم المسئولين فى الدولة قد لجأوا إلى أسلوب «التطنيش» عملاً بالحكمة التى تقول «دعهم يكتبون .. ونحن نفعل مالا يريدون» ولاشك أن الكتابة فى هذا المناخ .. وفى مثل هذه الظروف تعتبر ضياعاً للوقت والجهد و العمر .. وأيضاً التأثير ..

فإذا كانت الكتابات مجرد حبر على ورق .. أو كلام فى الهواء فالأكرم والأفضل أن نطوى الأقلام ونلوذ بالصمت .. وربما كان هذا ما يريده المسئولون منا ..

ولاشك أن «الطناش» وأعتذر لاستخدام الكلمة ولكنها أقرب الكلمات التى يمكن أن تعبر عن هذا المناخ .. هذا الطناش يترك أثراً سيئاً على مستويات كثيرة ..

أنه يفقد الكلمة احترامها وتأثيرها أمام الناس .. خاصة إذا كانت تتناول موضوعاً هاماً وخطيراً .

إن الاعتياد على الطناش يفقدنا القدرة على إدراك آثار الأشياء وردود أفعالها .. ومن الخطأ أن نتصور أننا فقط أصحاب الفعل ، وأن على الآخرين قبول هذا الفعل فى كل الحالات سواء كان خطأ أم صواباً.

إن هذا الطناش لم يقتصر على مأساة قصر محمد على ، ولكن هناك حالات صارخة لا تقل خطورة عن القصر ومنها إنشاء الطريق الدائرى حول الهرم وتحذير اليونسكو من خطورة ذلك على الأثر التاريخى .. ومنها أيضاً ما حدث للآثار والمقابر فى صعيد مصر بعد السيول الأخيرة .. ولقد سبق ذلك كله تحذيرات بضرورة حماية هذه المناطق .. ولكن أسلوب « الطناش » كان هو الرد الدائم والإجابة على كل صاحب قلم يحاول أن يقترب من الحقيقة .. أو يبحث عنها .

والشيء المؤكد أن قصر محمد على فى المنيل يواجه الآن فصلاً جديداً فى حكايته لا ندرى ما هى أهدافه.. وحدوده .. ولقد ترك ذلك مجالاً واسعاً للارتياب والشك والتساؤل .

هل ستقوم الدولة بالفعل ببناء طابقين عليه .. وهنا يكون السؤال : وما هو الهدف من ذلك .؟ إن ذلك يعنى ببساطة أن القصر يواجه عملية تصفية وهدم ولكن بأسلوب حضارى .. فقد حاولنا أن نقيم به بعض التوسعات ببناء طابقين .. ولكنه لم يتحمل وتهاوت جدرانه ، وهذا قضاء الله وقدره .. وهنا يجب أن يهدم القصر .. ويباع ..

هل هناك اتجاه إلى إدخال القصر فى صفقات الخصخصة على أساس أن به فندقاً صغيراً وأن مجموعة كبيرة من الفنادق معروضة للبيع الآن وهو واحد منها .

أم أن هناك اتجاهاً إلى استغلال مساحة القصر الشاسعة وتبلغ ١٧ فداناً أى ما يزيد على ٧٠ ألف متر مكعب فى إنشاء عدد من الأبراج السكنية التى تساهم فى اتساع مساحات القبح فى حياتنا .

أم أن هناك رغبة صادقة فى حماية هذا القصر بإسناد الإشراف عليه إلى جهة واحدة كموقع أثرى .. أو مكان سياحى .. بحيث تتوافر له الحماية اللازمة .

وما زال لدينا أمل أن نجد رداً من مسئول كبيرا كان أم صغيراً ليقول لنا : ما هو مستقبل قصر محمد على ؟

نصدق من .. الوزير المسئول
أم الشركة التى تبيع القصر

فى الأسبوع الماضى أرسل لنا الدكتور ممدوح البلتاجى وزير السياحة رداً حول موقف قصر محمد على ، وأكد الرجل فى رده أن الدكتور عاطف عبيد الوزير المسئول عن قطاع الأعمال أصدر تعليمات مشددة بألا تتم أية إنشاءات جديدة فى حديقة القصر.. وتصورنا أن القضية قد حسمت وانتهى الموضوع بهذا القرار الجاد الحكيم .. وشكرنا الوزيرين باسم الملايين من عشاق القيمة فى هذا البلد على هذا الموقف الحاسم.

ولكن حدث تطور آخر ..

أرسلت لنا شركة إيجوث رداً جديداً أكدت فيه أنها ستطرح مناقصة عالمية لإنشاء فندق جديد على نفس المساحة التى يشغلها

الفندق الحالى وهى عشرة أفدنة من إجمالى مساحة القصر ، والتى تبلغ ١٧ فداناً .. وقال رئيس الشركة فى رده الذى ننشره اليوم أن شركته تملك هذه الأرض بعقود مسجلة ..

ومن خلال رد الشركة يتضح أن النية مبيتة وأن مخاوفنا فى محلها .. وأن قصر محمد على سوف يشهد مجزرة جديدة رغم تأكيدات وزيرى السياحة وقطاع الأعمال بأن ذلك لن يحدث وأن الأمر كله يجرى فى سرية تامة .... وفى رد رئيس الشركة نقاط كثيرة تدعو للتساؤل..

- إن رئيس الشركة يقول أن هناك سوراً بين ما تملكه شركته فى القصر على حد زعمه وبين مناطق أخرى تتبع وزارة الثقافة وهيئة الآثار .. وهذا السور عبارة عن سلك شائك يحدد فقط معالم الجريمة التى تمت منذ ثلاثين عاماً ضمن مؤامرات القبح والتسيب التى أصابت حياتنا .

- إن رئيس الشركة يقول فى رده أن شركته تملك هذه المساحة بعقود مسجلة .. ولا أدرى من أين جاءت الشركة بهذه العقود إذا كان صاحب القصر نفسه الأمير محمد على قد سجله كمتحف إسلامى منذ سبعين عاماً ، وترك له من الأوقاف ما يكفى للإنفاق عليه .. إن الشركة لا تملك على الإطلاق أى حق فى حديقة هذا القصر ، ولكنها وضعت يدها عليها ضمن إجراءات تعسفية كثيرة حصل فيها كبار

المسئولين على القصور والفيلات والشقق بقرارات لقيطة لا سند يحميها من عرف أو قانون .

- يتحدث السيد رئيس الشركة عن الموظفين الذين ستتكفل بهم الشركة التى ترسو عليها المناقصة لإنشاء الفندق الجديد ، وأنا أعلم أن عددهم جميعاً ١٥٠ موظفاً يمكن أن تستوعبهم أى جهة ضمن آلاف بل ملايين الموظفين الذين لا يعملون فى الدولة ، فهم لا يمثلون مشكلة على الإطلاق .

- كيف تعطى الشركة نفسها الحق فى اقتطاع عشرة أفدنة من القصر أى حوالى ٤٠ ألف متر مربع من المساحات الخضراء التى تحتوى على أندر الأشجار والنباتات .. وكيف يقام فندق وسط متحف تاريخى بهذه القيمة وهذا الموقع ، خاصة أن الأكشاك الخشبية الموجودة حالياً غاية فى القبح وأهانت كل شىء فى حديقة القصر .

- إذا كانت الدولة قد أخطأت حينما استباحت عشرة أفدنة من قصر عريق سجله صاحبه كمتحف إسلامى نادر .. فهل يعنى ذلك استمرار الخطأ .. وهل يمكن أن نستبدل الأكشاك الخشبية القبيحة التى أطاحت بجلال القصر وجماله بكتل أسمنتية أخرى تزيد المكان قبحاً وتقطع مابقى فى الحديقة من الأشجار.

- إن معنى البناء فى حديقة القصر المتشابكة الأشجار أن تدخل آلات ومعدات ومواد بناء وعمال ونشات وأدوات للحفر وأخرى لقطع رقاب الأشجار .. وسوف تجد الشركة أمامها فرصة نادرة لتسوية عشرة أفدنة يمكن أن تباع بسعر مغر فى مثل الموقع الفريد ..

- إن الشركة تفكر بمنطق الربح والخسارة فأمامها قطعة أرض ذهبية .. وموقع رائع .. وصفقة بملايين الدولارات .. ولا يعنها من قريب أو بعيد أنها تغتال التاريخ وتقطع رقاب متحف عريق .. إن الشركة تفكر بمنطق السماسرة وتجار الشنطة والمهربين ؛ ولهذا لا يعنيها شيء فى قصر محمد على غير أنه قطعة أرض ومجموعة خوازيق خرسانية .. وحقيبة من الدولارات ، وليذهب محد على وقصره وتاريخه والبلد الذى عاش فيه إلى الجحيم .

وأقول ...

إن هذه المأساة يجب أن تكون لها نهاية .. لأن هذا الذى يحدث أمام أعيننا سوف يصيبنا بأسوأ أنواع الجنون ، أن نعرض وطناً عريقاً فى حجم مصر لأعمال التجارة السمسرة وأن نفرط فى كل ما نملك أمام بضعة دولارات دون وعى بقيمة ما نبيع ..

ولا أدرى من أصدق فى هذا الموضوع ..

هل أصدق ما قاله د. ممدوح البلتاجى ود. عاطف عبيد .. أم ما يقوله المسئول عن الشركة والذى أعلن بالفعل عن مناقصة عالمية لإنشاء فندق جديد فى قصر محمد على .

الأرجح عندى أن كلام رئيس الشركة هو الذى تدور حوله الجريمة الآن .. وأن الرجل واضح فى فكره وموقفه وأن شركته تفكر بمنطق الزمن الذى نعيش فيه .. وهو أن كل شىء قابل للبيع .. وأخشى ما أخشاه أن نجد أنفسنا معروضين للبيع فى مزادات بشرية بعد أن ينتهى بيع كل شىء ، ولن يشترينا أحد .

إننى لا أدافع عن قصر محمد على كقطعة أرض نادرة ... ولكننى أدافع عن شىء من القيمة بقى بيننا . وأدافع عن تاريخ عريق يحسدنا العالم كله عليه ونحن لا ندرك قدره .. وأدافع عن زمن جميل مازال ساكناً فى أعماقنا تعلمنا منه الإحساس بالجمال والأشياء والبشر.. وأتمنى أن نترك لأبنائنا المساكين شيئاً قليلاً منه.. وهذا القصر بعض مابقى من هذا الزمن الجميل .

إننا لن نسكت أبداً عن هذه المجزرة التى يتعرض لها قصر محمد على ، ولن نسمح للشركة أن تبيع تاريخنا للمرة الثانية من أجل حفنة دولارات يعلم الله وحده أين تذهب .. ولن نترك سماسرة العالم يعبثون

فى تاريخنا ويستبيحون أجمل ذكريات عمرنا .. إننا لا ندافع الآن عن قصر محمد على الأرض والمكان ولكننا ندافع عن مصر الرمز والتاريخ والقيمة .. وإذا خسرنا المعركة فإن ذلك يعنى أن وجودنا تساوى مع عدم وجودنا .

سوف نقف للشركة بالمرصاد حتى لو اضطرتنا الظروف إلى الذهاب إلى حديقة القصر العتيق بحيث لن نترك شبراً فيها لكى يتسلل إليه مغامر أو سمسار لا يعنيه غير حفنة دولارات ومجموعة خوازيق خرسانية .

إن سماسرة العالم يشترون الآن أغلى ما عندنا ..

إننى أتوجه إلى المثقفين والفنانين والكتاب وعلماء البيئة والزراعة والنباتات ، وأتوجه إلى أعضاء مجلس الشعب .. وإلى نقابة المحامين وإلى كل عشاق الأصالة والتاريخ فى مصر أن يقفوا ضد هذا الطوفان الذى يبيع كل شىء .

إن قضية قصر محمد على هى قضية القيمة فى مصر ... ولم يعد أمامنا غير أن ندافع عن آخر رموزها ..

الحقيقة أننى لا أدافع عن حديقة قصر ولكننى أدافع عن مصر...

ولقد التزم د. البلتاجى ود. عبيد من خلال مسئوليتهما فى الحكومة بعدم المساس بهذا القصر ، وعليهما الآن أن يؤكدا للناس جدية هذا الالتزام أمام شركة تصر على بيع القصر فى مناقصة عالمية وهى لا تملك الحق فى ذلك ...

ليس كل شىء فى مصر للبيع ..

الحقائق الكاملة
حول اغتيال قصر محمد على

أريد أن أضع أمـــام الدكـــتـــور عـــاطف صـــدقى رئيس الوزراء مجمموعة من الحقائق الهامة حول قضية قصر محمد على بالمنيل حتى يحسم الخلاف القائم حالياً بين أكثر من جهة حول أحقيتها فى حديقة القصر.. وخاصة أن الإعلان عن بيع هذه الحديقة فى مناقصة عالمية لإقامة فندق جديد سيكون سابقة خطيرة لا تتناسب أبداً مع احترامنا لتاريخنا وتقديرنا لتراثنا الحضارى والإنسانى .

هذه الحقائق تتلخص فى الآتى :

- إن قصر محمد على كما جاء فى وصية صاحبه الأمير محمد على يعتبر متحفاً إسلامياً ، وهذه الوصية كتبها صاحبها فى عام ١٩٢٥ وكل ذلك مسجل على لوحة تذكارية فى مدخل القصر .

- إن شركة إيجوث التى تطالب بملكية مزعومة فى حديقة القصر حصلت على هذا الحق بقرار وزارى أصدره السيد على صبرى عندما كان رئيساً للوزراء فى عام ١٩٦٥ وكان القرار خدمة شخصية لأحد أقاربه ، وكان يرأس مصلحة السياحة فى ذلك الوقت .

ومنذ هذا التاريخ قامت قطاعات السياحة المختلفة بالاستيلاء على الحديقة والقاعة الذهبية ومداخل القصر الرئيسية .

- قامت مصلحة السياحة بعد ذلك بتأجير الحديقة للشركة الفرنسية التى أقامت عليها مجموعة من الأكشاك الخشبية القبيحة ، وشهدت الحديقة أكبر مجزرة لقطع رقاب الأشجار وتم هدم البورجلات وبحيرة للبجع وأقامت الشركة مكانها حمام سباحة وملاعب للتنس وترتب على ذلك كله تشويه الحديقة ونهب أشياء كثيرة نادرة من القصر.

- فى عام ١٩٧٨ استطاع الراحل الكبير عبد المنعم الصاوى إعادة القاعة الذهبية إلى وزارة الثقافة بعد أن أصبح وزيراً لها بعد أن تأكد أمامه أن الشركة الفرنسية شوهت هذه القاعة النادرة بحفلاتها الصاخبة ، وهى القاعة التى تتناثر عليها الآيات القرآنية المكتوبة بماء الذهب وبردة البوصيرى وهى تحفة معمارية غاية فى الإعجاز والتفرد .

- إن القصر كان دائماً غنيمة من الغنائم السهلة مع القصور الملكية الأخرى ، فقد طلبت وزارة التربية والتعليم يوماً تحويله إلى ناد

رياضى للطلبة .. كما حاولت أجهزة السياحة إنشاء مطاعم وكازينوهات فى حديقة القصر .. حتى تم حسم الأمر لصالح الشركة الفرنسية التى أحتلته تماماً لمدة خمسة وعشرين عاماً ، وانتهى عقد تأجير القصر فى الشهر الماضى فقط .

– فى شهر يناير ١٩٨٤ أصدر الدكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء فى ذلك الوقت قراراً باعتبار قصر محمد على بالكامل بما فيه الحديقة « منافع عامة أثرية » ، ويشمل ذلك كله ملحقات القصر وحدائقه والحرم الذى يفصل القصر عن النيل .

وكان من المفروض بعد صدور هذا القرار إزالة الأكشاك الخشبية القبيحة التى أنشأتها الشركة الفرنسية فى قلب القصر ، ولكن حرصاً على العلاقات مع فرنسا رأت الحكومة إكمال عقد تأجير الحديقة للشركة الفرنسية حتى تنتهى مدته .

وبناء على قرار رئيس الوزراء الأسبق الدكتور فؤاد محيى الدين فإن القصر بكل مشتملاته يخضع حالياً لقانون الآثار رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣ ، ولا يجوز على الإطلاق إقامة إنشاءات جديدة فيه بل يجب تحويله بالكامل إلى متحف إسلامى نادر .

– إن القصر تعرض فى فترات مختلفة لعمليات نهب دائمة ، واختفت منه اللوحات والسجاجيد والسيوف الذهبية التى لا تقدر بثمن .. وينبغى أن نحافظ على ما بقى فيه من التحف النادرة .

- إنه لا يعقل أبداً أن يكون من بين برنامج الخصخصة فى مصر أن نبيع المتاحف والآثار ، ولا أعتقد أبداً أن ذلك يدخل فى سياسة حكومة د.عاطف صدقى ، وقصر محمد على أثر تاريخى بالعرف والقانون والواقع الفعلى للقصر . وأن شركة إيجوث لا تملك فى القصر شبراً واحداً وليس لديها أية مستندات قانونية أو غير قانونية حتى يكون لها الحق فى بيعه ، والأمر كله لا يتجاوز قراراً لقيطاً أساء لنا شعباً وحكومة حينما أعطى لشركة أجنبية الحق فى احتلال حديقة متحف لتقيم عليها مجموعة أكشاك خشبية قبيحة ، والدليل على هذا الخطأ الفادح أن وزارة الثقافة استردت القاعة الذهبية من شركة إيجوث بقرار وزارى منذ ١٦ عاماً ..

والمطلوب الآن أن يحسم رئيس الوزراء الخلاف القائم حول حديقة القصر ، وأن يضع حداً لمحاولات بيع هذه الحديقة لأن هذا الإجراء سيكون سبة فى تاريخ كل ما هو أصيل فى هذا البلد .

لقد أكد لى الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة أنه أرسل مذكرة واضحة التفاصيل حول هذا الموضوع إلى الدكتور عاطف عبيد الوزير المسئول عن قطاع الأعمال والذى تتبعه شركة إيجوث التى تحاول الآن بيع حديقة القصر فى مناقصة عالمية وهى لا تملك شيئاً فيه .

والدكتور عاطف عبيد قبل أن يكون وزيراً لقطاع الأعمال هو وزير مسئول عن حماية البيئة وهو لن يقبل أبداً الإطاحة بحديقة نادرة

مثل حديقة قصر محمد على مساحتها عشرة أفدنة من أجل مجموعة من الغرف فى فندق جديد .

وعاطف عبيد كمصرى وطنى أولاً وكمسئول ثانياً لن يقبل أبداً أن يتم مثل هذا السلوك غير الحضارى فى عهده. فمهما كانت الملايين التى ستدخل خزانة مصر من بيع الحديقة فإن هذه الحديقة أهم بكثير من هذه الملايين ، وسمعة مصر أهم من كل شىء .

وفى جانب آخر أكد لى الدكتور ممدوح البلتاجى وزير السياحة أن السياحة لا تعنيها أبداً زيادة مجموعة من الغرف ستقام فى حديقة القصر فى شكل فندق جديد ، ولكن يعنيها قبل أى شىء أن تحافظ على مثل هذا الأثر التاريخى النادر ، وأنه شخصياً لا يقبل تحت أى ظرف من الظروف أن تباع حديقة قصر محمد على مهما كان الثمن الذى سيدفع فيها .

أما شركة إيجوث وهى بحكم تاريخها متخصصة فى مثل هذه الكوارث السوداء فهى التى باعت قصر لطف الله فى الزمالك الذى أقيم عليه فندق الماريوت .. هذه الشركة يجب أن تأخذ أكشاكها من حديقة القصر وترحل ، وأرجو أن يتم بيعها قريباً ضمن برامج الخصخصة حتى تشرب من نفس الكأس لأنها فى الحقيقة هى الأولى والأحق بالبيع . وأتمنى أن يحسم الدكتور عاطف صدقى قضية قصر محمد على بقرار

يعيد القصر كاملاً كمتحف أثرى إسلامى رائع ومزار دائم لعشاق التراث. وأن يصدر قرار إزالة لكل مخلفات الشركة الفرنسية التى انتهى عقد تأجيرها للقصر وأن ينهى رئيس الوزراء هذه القضية لصالح التراث والتاريخ والقيمة .

إن ملايين الجنيهات لا تساوى سمعة مصر ، وحتى لا يقال يوماً أننا فرطنا فى أجمل ما عندنا من تاريخ عريق مقابل حفنة دولارات هزيلة .. وما زلت أقول .. ليس كل شىء فى مصر قابل للبيـــــــع .

كلمة .. أرجو أن تكون الأخيرة

تستطيع مصر أن تبنى كل شهر فندقاً جديداً .. وبرجاً جديداً ، ولكنها لا تستطيع أن تغرس بين ربوعها شجرة فاطمية عريقة النسب عمرها خمسمائة عام تقف الآن بكل الشموخ فى قصر محمد على بالمنيل شاهدة بعراقة الأرض التى خرجت منها والوطن الذى احتواها وحماها وقدرها .

لقد كان عندى ما يشبه اليقين بأن قضية قصر محمد على سوف تحسم لصالح القيمة .. وليس لصالح المال .. فنحن أصحاب دور ورسالة قبل أن نكون ورثة مال أو سلطان .. ونحن أول من علم الدنيا الحرف .. والدين والفنون .. هذه المحاور الثلاثة التى قام عليها تقدم الإنسان عبر عصور التاريخ المختلفة .

ونحن شعب يشبه أشجار النخيل .. قد تعصف به الرياح يميناً وشمالاً ولكن جذورنا بقيت شاهد عدل على أننا ما زلنا نقدر القيمة ..

والأصالة .. والتراث .. رغم كل محاولات تشويه هويتنا واقتلاع جذورنا .

وقد تأكد ذلك كله فى رسالة بعث بها الدكتور عاطف عبيد وزير قطاع الأعمال والتنمية الإدارية والبيئة بأنه أصدر قراراً بوقف أى محاولات لبيع حديقة القصر ، وأنه قرر منع أية إنشاءات أيا كان نوعها وأن أساتذة كلية الزراعة وخبراء الزراعة سوف يتولون مسئولية صيانة الحديقة ورعايتها .

ونحن ننشر اليوم خطاب د. عاطف عبيد شاكرين له هذا الموقف باسم الملايين من حماة التراث فى مصر .

وفى نفس الوقت تلقينا خطاباً رقيقاً من الأمير عباس حلمى محمد عبد المنعم ابن شقيق الأمير محمد على صاحب قصر المنيل يشكر فيه الأهرام باسم الأسرة على تبنى قضية قصر محمد على .

وأرفق الأمير مع رسالته النص الكامل لوصية عمه الأمير محمد على والمسجلة بمحكمة مصر الشرعية بتاريخ ٢٤ إبريل عام ١٩٤٥ والمسجلة تحت رقم ١٥٨٣٤/ ٨٠ بسجلات وزارة الأوقاف . وتنص الوصية على أن القصر كاملاً أصبح وقفاً شرعياً تنتفع به الأمة المصرية كمتحف من متاحف الحكومة المصرية . ونصت الوصية على تخصيص وقف من الأطيان الزراعية مساحتها ٢٠١٣ فداناً فى مناطق شباس

عمير وقزمان بدسوق ونشرت وقلين فى كفر الشيخ . وأوصى الأمير بأن يفتح القصر بكل ما فيه للزوار من أبناء الشعب المصرى والأجانب وعشاق الفنون الإسلامية فى العالم ، وأن يتم الإنفاق على القصر من إيرادات الأطيان الزراعية التى خصصها الأمير لذلك ، وأن يعين حاكم البلاد مشرفاً على هذا المتحف يتولى مسئولية الإنفاق عليه من موارد الوقف .

ولا أدرى فى يد من وقعت هذه الأطيان ومن يستغلها الآن ، وهى التى تزيد قيمتها حالياً على مبلغ ٦٠ مليون جنيه .

ونحن ننشر اليوم أيضاً هذه الوصية التى تؤكد أن القصر مسجل كمتحف إسلامى منذ خمسين عاماً وقبل قيام ثورة يوليو بسبع سنوات ولعل هذه الوصية تسكت كل من يدعى بالباطل أن له حقاً فى القصر .

وإن كنا نتساءل عن مصير هذا الوقف ومن الذى سطا عليه فى زمان الغفلة .

إن دفاعنا عن قصر محمد على ليس دفاعاً عن قطعة أرض أو مجموعة من الأشجار النادرة .. ولكنه دفاع عن دور ورسالة ومسئولية .. إن هناك أطرافاً كثيرة تتربص بدور مصر الآن ... هذا الدور الحضارى الأصيل الذى أعطاها القيمة والمهابة والجلال .

والواجب والمسئولية يحتمان علينا أن نكون على وعى كامل بكل ما يدور حولنا ، فهناك أطراف كثيرة تحاول أن تسلب مصر دورها العريق .. منهم الأشقاء .. ومنهم الأصدقاء ومنهم «الأعدقاء» وربما كان منهم أيضاً بعض الأبناء .

المهم .. أن نتابع بوعى كل فصول الرواية فقد تطول بعض الوقت.

هدم تاريخ أم تشويه أمة

لا أدرى ما هو السر فى هذا الموقف العدائى الغريب الذى نتخذه الآن ضد تاريخنا أحداثاً وأشخاصاً وتراثاً ورموزاً .

ما هو السر فى تلك المحاولات المستميتة التى تهدف إلى تغييب وعينا وإهدار تراثنا وتشويه كل معالم الأصالة فى أعماقنا .

ما هو السر الذى يجعلنا نغير مناهج تاريخنا .. ونجعل من التاريخ مادة اختيارية فى مدارسنا .. ونقيم الاحتفالات فى ذكرى غزو أراضينا واحتلال أوطاننا .

ما هو السر فى هذه الهجمة الشرسة على كل ما هو أصيل وعريق وشامخ فى هذا الوطن .

هل هى أيدٍ خفية ؟ هل هى تحركات مقصودة ؟ هل هو عدم وعى .. هل هو إصرار على التخريب .. تساؤلات كثيرة يحاول الإنسان

أن يجد إجابة عليها أمام أحداث متتالية قد تختلف فى ظواهرها ، ولكنها تتفق فى شىء واحد .. أننا أصبحنا وطناً يعادى تاريخه .. وهذه هى قمة المأساة التى يمكن أن يواجهها شعب فى هذا العالم .

تحت يد وزارة التعليم مجموعة من القطع الأثرية النادرة .. وبقرار غير حكيم فى بداية ثورتنا المباركة تحول أكثر من ألف قصر تاريخى تنتشر فى ربوع مصر إلى مدارس .

حتى وإن كانت النية طيبة والقصد نبيلاً فإن ما حدث لهذه القصور كان أكبر جريمة فى حق تاريخنا المعمارى .

ورغم الظروف الصعبة التى واجهتها هذه القصور والفيلات فإن الكثير منها صمد أمام متغيرات الزمن .. والإهمال .. والتلاميذ الصغار.. والمجارى .. والمياه الجوفية .. والتلوث .. والأكثر من هذا أن الكثير من هذه القصور تحمل بقوة قسوة الزلازل واستطاع أن يصمد وأن يقاوم وأن يثبت للجميع أصالة العمارة المصرية فى زمن ازدهارها ، وقبل أن يعبث بها الإهمال والتخريب والتسيب .

وكان من الممكن أن تبقى هذه المدارس دوراً للعلم .. ودرساً فى التاريخ تتعلم منه الأجيال الجديدة قيمة المحافظة على التراث وكيف يصون الأبناء تاريخ آبائهم .

كـان مـن الممكـن أن تظل هذه المدارس قطعـاً أثرية نعـتـز بهـا ونحافظ عليها .. فيرى الأبناء فيها تاريخ وطنهم بكل مظاهر العراقة والأصالة فيها .. ولكن الإهمال بدد كل الأحلام .. وتحولت هذه القصور الجميلة إلى كتل خرسانية مشوهة وسقط ما سقط .. وبقى البعض الآخر ينعى حظه فى زماننا الردىء .

وأخيراً ومع مناخ «الخصخصة» قررت وزارة التعليم أن تتخلص من التاريخ مناهج وقصوراً ورموزاً .

حولت التاريخ إلى مادة اختيارية فى أهم الشهادات التعليمية عندنا .. وقدمت القصور التاريخية للمقاولين وتجار الخردة وبدأت فى هدمها لإنشاء مدارس جديدة عليها .

والغريب أن الزلازل عجزت عن أن تهدم القصور القديمة ونجحت فى أن تهدم المدارس الحديثة ، وكلنا يعلم هذه المأساة . وبدأ مسلسل هدم المدارس التى كانت تمثل القصور والفيلات العريقة .

وتوارت تحت معاول الهدم الآثار الجميلة .. والأخشاب العريقة .. والفنون التى لا تقدر بثمن .

وإذا كان موقف وزارة التعليم غريباً .. فإن الأغرب منه أن كل ذلك تم أمام هيئة الآثار وعلى مسمع منها .

وخلال شهور قليلة تم هدم ٤٠ قصراً ، منها قصر النزهة .. فى شبرا .. وقصر حنيفة السلحدار .. وتماثيل المرمر فى مدرسة روض الفرج.. والرسوم الإسلامية العريقة فى مدرسة الأشراف التى بناها الخديو إسماعيل .. وهذه القصور جميعها يزيد عمرها على مائة عام ، وهى آثار تاريخية بكل المقاييس المعمارية والحضارية والزمنية .

لقد كانت جريمة ثورة يوليو أنها حولت القصور التاريخية إلى رياض للأطفال ، رغم كل تقديرنا لمجانية التعليم .. وكانت جريمتنا كشعب أننا تركنا أيدى العبث والإهمال تعبث بكل هذا التاريخ ، ابتداء بهدم الفيلات لإقامة العمارات السكنية المشوهة ، وانتهاء بالقضاء على أهم ثروة معمارية يملكها شعب فى العالم كله .

ثم ها هى جريمة أخرى تحدث أمام أعيننا ، حيث بدأت معاول الهدم تقضى على آخر ما تبقى من القصور الجميلة التى تهاوت أمام الإهمال والإصرار على تدمير كل شىء جميل فى حياتنا .. وما زالت بلدوزرات هيئة الأبنية التعليمية تقوم بمهمتها على أكمل وجه فى هدم آخر ما تبقى لدينا من القصور والفيلات التاريخية العريقة .

وعلى هذه الصفحة نعرض اليوم أركان هذه الجريمة مطالبين بوقفها ومحاسبة المسئولين عنها أيا كانت مواقعهم فليس هناك وطن يعادى تاريخه كما يحدث فى مصر الآن .

أوقفوا مذابح القصور ..

لم نتجاوز الحقيقة حينما أكدنا أن عدداً كبيراً من القصور هُدم في الفترة الأخيرة ، ولا نغالط إذا قلنا أن عدداً آخر من القصور التاريخية ينتظر حالياً نفس المصير .. ويستحيل أن نكون ضد بناء مدارس جديدة .. فهى طاقات للعلم والثقافة ولكن من الخطأ أن يقام الجديد على أنقاض التاريخ .

فى الأسبوع الماضى تناولنا جريمة بشعة ، قامت بها هيئة الأبنية التعليمية ، حينما هدمت مجموعة نادرة من القصور التاريخية لتقيم عليها مدارس جديدة ، رغم أن فى القاهرة مليون خرابة يمكن أن تقام عليها المدارس من أجل أن تبقى القصور .

وأصدر الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم بياناً أكد فيه حرصه الشديد كوزير ومسئول ومواطن على حماية آثار مصر .

وفى مشهد جنائزى مؤثر قامت هيئة الآثار ، بتصوير القصور قبل هدمها للاحتفاظ بها كذكرى ..

وأعلنت محافظة القاهرة على لسان محافظها السيد عمر عبدالآخر رفضها الشديد لهدم القصور التاريخية ..

الجميع أدان .. والجميع شجب .. ولكن هناك جريمة وقعت .. وقصور تهدم .. وتاريخاً عزيزاً توارى بين أيدينا وأصبح أنقاضاً .

وأمامى وأنا أكتب هذه السطور قائمة طويلة بالقصور التى تم هدمها بالفعل .. وقائمة أخرى .. بقصور تنتظر الهدم خلال الأيام القادمة ..

فإذا كان وزير التعليم ومحافظ القاهرة ووزير الثقافة وهيئة الآثار يدينون هذه الجريمة .. فأين كانوا من كل ما جرى ؟ .

أين الأشخاص الذين أصدروا قرارات الهدم والإزالة .. وأين الأشخاص الذين تفاوضوا مع المقاولين .. ونظموا العطاءات والمناقصات.. وقبضوا الثمن ؟ ..

وأين الأشخاص الذين أشرفوا على عمليات الهدم ، وتمت جميعها أمام أعينهم .. وأين الأنقاض والجدران .. وقطع الرخام والأبواب الحديدية النادرة وتماثيل الرخام والمرمر ؟ ! ..

لقد اختفى جسم الجريمة .. وانسحبت معاول الهدم .. وتحولت القصور إلى خرائب .. وأصحاب القرار يستمتعون فى مكاتبهم بآخر صور التقطتها كاميرات التصوير للأبنية العريقة ، وهى تتساقط وتترنح تحت سياط الزمن الرىء .

إذا كان وزير التعليم يتحدث عن أهمية هذه القصور ، فكيف وافق على إزالتها .. وكيف سمح لهيئة الأبنية التعليمية بأن تهدم كل هذه القصور فى عهده ..

وأين كانت محافظة القاهرة ورؤساء أحيائها ومذابح القصور تتم كل يوم أمام أعينهم ..

وكيف اكتفت هيئة الآثار بأن تلتقط بعض الصور التذكارية للقصور قبل هدمها ..

وإذا حاولت أن تناقش الأمور على أساس إدارى يحدد المسئولية، فسوف تكتشف أن معظم أجهزة الدولة تحولت إلى مجموعة من الجزر لاربط بينها ولا اتصال .. فالوزير يقول كلاماً جميلاً عن الأهمية التاريخية للآثار .. ومحافظ القاهرة يشجب ما حدث .. وهيئة الآثار تقف مع المتفرجين .. وهنا أتساءل : من المسئول إذن عن هذه الجريمة ..

هل هدم المسئولون فى هيئة الأبنية التعليمية هذه القصور دون علم وزير التعليم ومن وراء ظهره ؟ ..

هل قامت البلدوزرات بهدم هذه القصور دون علم رؤساء الأحياء فى إلقاهرة ، وهم يعرفون كل مصيبة تقع ابتداء بالعمارات المخالفة ، وانتهاء بتزوير رخص البناء أمام مريديان القاهرة عمارة رخصتها عشرة طوابق ، وارتفعت بقدرة قادر إلى خمسة وعشرين طابقاً ، لأن معظم كبار المسئولين فى الدولة حصلوا على شقق فيها .. واكتفت محافظة القاهرة بالحصول على غرامة مقدارها مليونى جنيه مقابل ١٥ طابقاً مخالفاً تطل على نيل القاهرة .

إن دماء هذه القصور يجب ألا تضيع وسط بيانات الشجب والإدانة .. فلابد من الحساب ..

لابد أن يسأل وزير التعليم رجاله فى الأبنية التعليمية ، كيف هدموا القصور دون علمه .. وإن كان يعلم فبماذا يفسر ما حدث وهو الذى يؤكد حرصه على المواقع التاريخية ؟ ..

ولابد أن يسأل محافظ القاهرة رؤساء أحيائه الكرام ، كيف تمت هذه الجريمة أمام أعينهم دون أن يخبروه .. وإن كانوا أخبروه فماذا فعل ؟ ..

ويجب أن يسأل وزير الثقافة أجهزة الآثار كيف اكتفت بمجموعة من الصور التذكارية للقصور العريقة احتفظت بها فى ملفاتها التاريخة .

لا أدرى لمن نتجه بالسؤال .. وأين الحقيقة فى هذا كله .. وعلى من تقع المسئولية .

إن كل مسئول يحاول أن يلقى الكرة فى ملعب الآخر ..

وحينما تكون القضية مصير وطن وتاريخ أمة ، فربما يتأخر الحساب بعض الوقت ، ولكنه لن يتأخر طويلاً .

إننى أطالب رئيس الحكومة د. الجنزورى بتشكيل لجنة للتحقيق فى ملابسات هذه الجريمة والمشاركين فيها والمسئولين عنها .

إذا كان وزير التعليم يدين ما حدث .. ومحافظة القاهرة تشجب الجريمة .. وهيئة الآثار اكتفت بالتصوير التذكارى .. فأين المسئولية .. ؟ .

من المسئول عن هدم قصر النزهة فى شارع شبرا ، وهو ثانى قصر يقام فيها بعد قصر محمد على الشهير .. وقد استقبل فيه الخديو إسماعيل السلطان عبدالعزيز عند زيارته لمصر .. وقد أعجب السلطان لدرجة أن طلب من أحد الرسامين الأتراك أن يرسم له القصر .

من المسئول عن هدم مدرسة شبراً الإعدادية ، وكانت من القصور الجميلة فى عهد الخديوى توفيق .. وكان القصر فى حالة جيدة تماماً ، وتم بيع كميات هائلة من أخشابه النادرة .. وأبوابه الحديدية التى لا يوجد لها مثيل .

من المسئول عن هدم المدرسة الإلهامية بالحلمية التى أنشئت فى عهد الخديو عباس حلمى ، وهى طراز إسلامى فريد ..

من المسئول عن هدم مدرسة الظاهر الثانوية ، وهى من قصور عهد الخديوى توفيق ..

من المسئول عن هدم الفيلا الجميلة بطرازها الحديث ، والتى كانت تشغلها مدرسة غمرة الإعدادية .

من المسئول عن هدم مدرسة طه حسين ، وقصر مدرسة جزيرة بدران ومدرسة روض الفرج ، ورقى المعارف والسلطان حسين والمعلمات الراقية وشبرا الأميرية ودرب النشارين ، وابن الرشيد ، وجميعها قصور تاريخية من القرن التاسع عشر ..

إننى أرجو رئيس الحكومة د. الجنزورى أن يوقف فوراً هدم قصر باغوص باشا ابن نوبار باشا فى شارع الشرابية ، وهو أثر تاريخى عريق من عصر عباس حلمى ، وهو الوحيد فى مصر طرازاً ومعماراً .

إننى أرجو رئيس الحكومة أن يوقف هدم قصر توفيق باشا بحلوان . والمعهد العلمى بالمبتديان ومدرسة النيل فى شبرا ، والتى تمثل قصراً فريداً فى عصر عباس حلمى ..

إننى أرجو رئيس الحكومة أن ينقذ ما بقى عندنا من قصور تاريخية ، وأن يأمر بتشكيل لجنة مسئولة لتحديد هذه القصور ،

وإصدار قرار قاطع بعدم هدمها أو الاقتراب منها .. ومن هذه القصور على سبيل المثال .. قصر سعيد حليم فى شارع شمبليون ومبنى مدرسة الاستقلال بشبرا ، وهو قصر نادر جدا فى مصر والعالم ، ويضم برجا معدنياً نادراً .. وسراى حب الرمان بالعباسية .. وقصر باغوص باشا وسراى نوبار باشا بشارع الجمهورية .. وسراى الأمير يوسف كمال بالمطرية .. وقصر البستانى فى باب اللوق ، وقصر والد إسماعيل باشا صدقى بشبرا .. وقصر إنجى هانم أرملة سعيد باشا خديوى مصر وسراى الخازنداره وسراى الأمير وحيد الدين بالمطرية .. وعشرات المدارس التى تحتل الآن قصوراً تاريخية نادرة فى شبرا والعباسية وحلوان والمنيل وجاردن سيتى والظاهر والحلمية وقصر العينى ..

لقد قام مقاول واحد بهدم تسعة قصور تاريخية فى صفقة واحدة مع هيئة الأبنية التعليمية ، ودفع عشرين ألف جنيه ثمناً لأنقاض واحد من أهم هذه القصور التى لا تقدر بثمن .

والآن هناك طابور طويل من المقاولين وتجار الأنقاض ينتظرون إشارة البدء لهدم كم جديد من رموز وتاريخ وحضارة ..

إنها جريمة بشعة ، وكلنا شركاء فيها .. ابتداء بمن أصدر قرار الهدم ومن نفذه ، ومن شاهد أنقاضه .

والساكت عن الحق شيطان أخرس .

وما زالوا يهدمون القصور ..

مازال هدم القصور مستمراً حتى كتابة هذه السطور .. ومعنى هذا أن المسئولين الذين أصدروا قرارات الهدم لم يهتموا بما كُتب .. كأنهم يقولون .. دعوهم يكتبون ..ونحن نهدم ما نريد .

فى ميدان الفرنساوى بالعباسية يجرى الآن هدم قصر رشيد باشا وعمره تسعون عاماً .. كما يجرى هدم مدرسة أمين سامى بالمنيرة .. وهى أيضاً قصر قديم .. وتترنح الآن جدران مدرسة حلوان القديمة وهى قصر من عهد عباس حلمى ..

فى الأسبوع الماضى أكد د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم أنه لم يصدر قراراً واحداً بهدم قصر من القصور .. وطلب من وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى أن تقدم وزارته قائمة بالقصور التى تشغلها وزارة التعليم لتحويلها إلى أماكن أثرية .. ولكن وزير الثقافة قال أن

هيئة الآثار لا تستطيع أن تفعل ذلك أمام مئات القصور التى تنتشر فى كل أنحاء مصر من الإسكندرية إلى أسوان .

وفى جانب آخر فإن هيئة الأبنية التعليمية التى لم يتجاوز عمرها أربع سنوات لا تعرف تاريخ هذه القصور التى تم الاستيلاء عليها منذ أكثر من أربعين عاماً ومع ثورة يوليو المباركة ..

والمشكلة الآن أن القصور تحتاج إلى إثبات هوية .. وبمعنى آخر لا يوجد فى مصر كلها سجل تاريخى عن هذه القصور .. إنها مجرد أسماء مدارس لا تعنى شيئاً بالنسبة للمسئولين وغير المسئولين أكثر من أنها جدران وقطعة أرض ومجموعة فصول دراسية ..

أما تاريخها المعمارى والحضارى والأثرى فهو لايعنى أحداً على الإطلاق .

وفى الوقت الذى أكد فيه وزير التعليم أن عمليات الهدم توقفت.. فأنا أؤكد أن عمليات الهدم لم تتوقف .. وهذا يعنى أن ذلك يتم من وراء ظهر كبار المسئولين فى الدولة ..

فمن يا ترى يهمه هدم قصور مصر .. وما هو الهدف من هدمها.. وماذا سيقام على أطلالها ..

محافظة القاهرة أصدرت قراراً فى شهر فبراير الماضى بإخلاء القصور والفيلات والعقارات ذات الطابع المعمارى والحضارى المتميز

والتى تقوم بشغلها أجهزة حكومية أو مدارس أو أى جهات أخرى حفاظاً على ثروتنا القومية ..

والقرار لم ينفذ .. والدليل على ذلك أن عشرات المدارس قد تم هدمها وهى فى الأصل قصور تاريخية .. بل إن محافظة القاهرة أقامت مساكن شعبية على مجموعة من الأماكن الأثرية المهمة .. والأدلة كثيرة ..

لقد تم هدم جامع سودون زاده الذى يرجع تاريخه إلى عصر المماليك لكى تبنى مكانه مساكن شعبية تطل على محراب المسجد العريق بعد أن تحول إلى مقلب للقمامة ..

وتحولت وكالة «المشناق» ووكالة طوسون ووكالة عباس أغا وجميعها أماكن أثرية مهمة إلى مساكن شعبية ..

بل إن المدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة تم بيع أجزاء منها وأقيمت عليها مجموعة من المساكن ، وأخيراً تم هدم المدرسة العريقة وتوارت أنقاضها تحت معاول القبح والعشوائية وامتهان التاريخ .

والمشكلة الأساسية الآن أنه لا يوجد أحد يتحمل مسئولية هذه الجرائم .. لأن معظمها جرائم تتم فى الخفاء .. حتى أنهم فى كثير من الأحيان يضعون «صواناً» حول المبنى الذى يتم هدمه حتى لا يكشف

أحد أبعاد الجريمة .. وتحيط السرادقات بالقصور العريقة فى مشهد جنائزى حزين وهى تتوارى أمام معاول التخريب .

ولا أدرى إلى من نلجأ الآن وعمليات الهدم تتم على قدم وساق.. د. حسين كامل بهاء الدين يؤكد أنه لا علاقة له كمسئول بعمليات هدم المدارس ، وأن قرارات الهدم مسئولية المحافظة ..

والفنان فاروق حسنى وزير الثقافة يقول أنه ينتظر قائمة من وزارة التعليم تحدد له القصور التاريخية التى ستضم إلى إشراف هيئة الآثار..

وفى جانب آخر فإن وزارة التعليم تطالب هيئة الآثار بتحديد هذه القصور .. والأبنية التعليمية لا تعرف لهذه القصور تاريخاً ..

وفى جانب آخر فإن محافظة القاهرة تصدر قرارات بعدم الهدم وفى نفس الوقت تقوم مجالسها المحلية كل يوم بإصدار ترخيص هدم جديد .. لقصر جديدة ..

فإلى من نلجأ الآن ؟ ..

وكيف تنبهت محافظة القاهرة منذ شهرين فقط إلى جريمة هدم القصور وقد شهدت السنوات الأخيرة أكبر مذبحة للتاريخ المعمارى فى مدينة القاهرة ..

فى مساحة لا تتجاوز مائتى متر تقام الآن مجموعة ضخمة من الأبراج ..

على حديقة مريديان القاهرة وفى الأماكن المخصصة لوقوف السيارات يقام الآن برج يقال أن ارتفاعه خمسة وأربعون طابقاً ..

وأمام المريديان برج قبيح الألوان مشوه العمارة ارتفاعه سبعة وعشرون طابقاً ..

وعلى أنقاض وأطلال قصر شريف باشا صبرى أمام المريديان أيضاً وافقت محافظة القاهرة على إقامة أربعة أبراج فى مكان واحد ، رغم أن عرض الشارع فى هذه المنطقة لا يتجاوز أربعة أمتار ..

هذه الأبراج السبعة فى منطقة لا يفصل بينها غير أمتار قليلة وأقيمت جميعها على أطلال قصور تاريخية عريقة وافقت محافظة القاهرة على هدمها .. وكان فى ذلك أكثر من جريمة .. الجريمة الأولى هدم القصور ، والجريمة الثانية إقامة الأبراج .. والجريمة الثالثة هذه النماذج المعمارية القبيحة التى شوهت جلال العاصمة وافقدتها صورتها الجميلة .

هل من الممكن أن يرسل السيد عمر عبدالآخر محافظ القاهرة كتيبة من رجاله إلى مواقع هدم القصور ليوقف هدمها سواء فى المدارس أو غيرها ، وينفذ قراره بقوة القانون ، وهو يملك هذا الحق .. هل يأمر

محافظ القاهرة المسئولين عن أحياء القاهرة بإعداد سجلات كاملة عن القصور والأماكن الأثرية التى يجب حمايتها ..

هل تخصص هيئة الآثار مجموعة من خبرائها لتحديد القصور التاريخية التى تحتلها المدارس ومأموريات الشهر العقارى وتنظيم الأسرة؟ .. هل يصدر قرار بتشكيل لجنة وزارية لحصر القصور التاريخية فى القاهرة بحيث يجلس الوزراء المختصون مع المحافظين مع المسئولين فى الآثار لوضع حلول جذرية لمشكلة القصور التاريخية فى مصر بما يضمن حمايتها .

إن كل طرف يحاول الآن أن يخلى مسئوليته .. والجريمة تتم فى وضح النهار وأمام أعيننا جميعاً .. وهى جريمة على المشاع ولا نعرف حتى الآن الأيدى الخفية التى تعبث بأغلى ما نملك ، وهو تاريخنا العريق ..

ما ضاع ضاع . وما تهاوى تهاوى .. والمطلوب الآن أن نحافظ على ما بقى بين أيدينا وهو القليل ؛ لأن الكثير فعلاً ضاع .

من يصون حرمة القصور ..

لا توجد جهة فى مصر الآن لديها حصر شامل بالقصور التاريخية فى مدينة القاهرة ، بما فى ذلك هيئة الآثار المسئولة .. ومحافظة القاهرة بكل رؤساء الأحياء فيها .

ولاشك أن هذه تعتبر ثغرة خطيرة ترتبت عليها نتائج سيئة كان أخطرها هدم مجموعة نادرة من القصور والفيلات فى السنوات الأخيرة ، بحيث يمكن القول بأن القاهرة فقدت بالفعل تراثاً معمارياً وتاريخياً لن تعوضه أبداً .. والشىء المؤلم أن معارك الهدم مازالت تمارس هوايتها الخبيثة تحت أنظارنا .

والمشكلة الأساسية التى اتضحت أمامنا فى الأسابيع الأخيرة أن هناك جهات كثيرة يمكن أن تتحمل مسئولية هدم القصور .. وبقدر ما يمكن أن تتحمل المسئولية بقدر ما تستطيع الهروب منها .

إن هيئة الأبنية التعليمية مسئولة .. ولكن أمام عمرها الذى لم يتجاوز السنوات الأربع يمكن أن تتراجع المسئولية خاصة إذا قال لك وزير التعليم : إننى أرفض هدم جدار واحد فى قصر .. ولكن اعطونى قطعة أرض بديلة أقيم عليها مدرسة وأنا أول من يحافظ معكم على القصور بكل ما فيها ، فهناك ملايين التلاميذ يريدون مكانا فى مدرسة .. وإذا كانت مسئوليتى كمواطن أن أحافظ على القصور فإن مسؤليتى فى السلطة أن أوفر مكانا فى مدرسة لكل تلميذ يسعى للعلم والمعرفة .

وهيئة الآثار مسئولة .. فكيف لايوجد لدينا حصر حتى الآن بالقصور التاريخية فى القاهرة أقدم عواصم الدنيا .. ألا يكفى أن تظل مخازن الآثار خمسين عاما بدون جرد ، كما اعترف يوما الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة والذى وضع خطة لحصر مافى المخازن من آثار.

قصور بدون حصر ومخازن آثار بدون جرد .. يحدث هذا ونحن نستقبل قرنا جديدا بعد سنوات ، وفى ظل أجهزة الكمبيوتر المتقدمة والإمكانيات الهائلة فى الأبحاث والرصد والتسجيل .. لن يضير هيئة الآثار أن تجمع عددا من خبرائها لرصد أهم القصور التاريخية ليس فى القاهرة وحدها ولكن فى كل أنحاء مصر ، ولتكن البداية تلك الأماكن الهامة فى قاهرة المعز ..

وإذا كان صندوق التنمية الثقافية قد أنفق سبعة ملايين جنيه على ترميم فيلا واحدة هى مكتبة القاهرة بالزمالك ، فلماذا لايخصص نصف مليون جنيه فقط لعمل حصر كامل وشامل لأهم القصور والمبانى التاريخية فى القاهرة .

أما محافظة القاهرة فقد اكتشفت منذ شهرين فقط أهمية القصور التاريخية .. وقد جاء اكتشافها متأخرا سنوات طويلة ، فالسيد عمر عبدالآخر يعمل محافظا منذ ستة عشر عاما ما بين القليوبية والجيزة والقاهرة ، فهل اكتشف سيادته الأهمية التاريخية للقصور فى شهر فبراير الماضى فقط ، حينما أصدر قرارا لم ينفذ بعدم هدم عشرات القصور خلال الشهور الأخيرة وتحت عين المحافظة وبموافقة منها .

وللأسف الشديد أن القرار صدر بعد أن تم هدم أجمل وأروع قصور وفيلات مصر على شاطىء النيل سواء فى القاهرة أو الجيزة .

وبدلا من أن تشغل محافظة القاهرة نفسها بمطاردة من يهدمون القصور .. شغلت نفسها بتصاريح بناء الأبراج على أنقاض هذه القصور .. ولاشك أن الصورة القبيحة التى نراها الآن على شواطئ النهر العريق أكبر دليل على هذه الجريمة المعمارية .

كنت أتمنى أن يقول لنا السيد المحافظ كيف وافق على إنشاء برج ارتفاعه خمسة وأربعون طابقا على أطلال حديقة فندق المريديان وعلى

أنقاض أشجاره ومواقف السيارات فيه ، وكيف سيقام هذا البرج فى وسط النيل ليحجب امتداده ويصبح مصدر تهديد لتدفقه .

وكنت أريد أن أسأل الذين باعوا هذا الفندق بمبلغ ٧٠ مليون دولار هل كان فى الصفقة إنشاء هذا البرج الجديد بارتفاعه المخيف .. وفى هذه الحالة يكون بيع المريديان بكل المقاييس صفقة خاسرة .. وغير أمينة .

وكنت أتمنى أن يرد سيادة المحافظ على قصة البرج المقام أما المريديان والغرامة الضئيلة التى حصلت عليها المحافظة وهى مليونا جنيه مقابل ١٥ طابقا مخالفا .. وكنت أريد أن أسأل عن عشرات الأبراج القبيحة التى لم تترك على النيل شبرا واحدا يتنفس فيه البسطاء من الناس هواء نقيا .

والخلاص الآن ..

- إن مذابح القصور مازالت تلتهم البقية الباقية وتحاول كل يوم أن ترتكب جريمة جديدة .

- إن أجهزة الدولة تفتقد التنسيق فيما بينها .. وأكبر دليل على ذلك هذا التعارض والتناقض فى مواقفها ، حيث تصدر قرارات هدم من جهة .. وقرارات تنفيذ من جهة .. وهناك جهات أخرى مثل هيئة الآثار لا علاقة لها بكل ما يجرى رغم أن مسئوليتها الأولى حماية هذا التاريخ .

- إن المسئولين يفعلون الآن ما يريدون دون خوف من حساب أو مساءلة .. هناك عشرات القصور ومئات الفيلات التى اختفت وقامت على انقاضها أبراج جديدة .. فماذا حدث .. لا شىء على الإطلاق ابتداء باختفاء فيلا أم كلثوم على نيل الزمالك وانتهاء بإقامة برج على حديقة المريديان مئات من القصور المهدمة والفيلات المخربة التى أطاحت بكل جوانب الجمال فى قاهرة المعز العريقة ..

والمطلوب الآن قرار سيادى يجمع السادة الوزراء مع المسئولين المختصين لعمل حصر شامل للقصور التاريخية فى أنحاء مصر من الإسكندرية إلى أسوان ، بحيث ينفذ قانون حماية الآثار على أساس أن مازاد عمره على مائة عام يعتبر أثرا تاريخيا يجب أن نحافظ عليه .

وقد يرى البعض أن فى ذلك تضييعا للوقت والجهد ، وأنا أقول إن أوقاتا كثيرة وأزمنة طويلة تضيع فى تفاهات يومية ابتداء بالتصريحات وانتهاء بشاشات التليفزيون ، فإذا ضاع الوقت من أجل تاريخ نحافظ عليه وحضارة نصونها .. فهذا إنجاز عظيم .

ومازلت أنتظر قرارا عادلا يصون للقصور حرمتها ويمنع عنها أيدى العبث والتخريب .. وأرجو ألا ننتظر طويلا .

المسئولية .. على المشاع !

لاتستطيع قوة فى الأرض أن تعيد القصور التى هدمناها إلى الحياة مرة أخرى ، فهذا يدخل فى نطاق المستحيل .. ولكن هدفنا الآن أن نبقى على هذه المجموعة القليلة الباقية حتى لاتلحق بها معاول الهدم والتخريب .

ولأن المسئولية كما قلت من قبل على المشاع ، فإن هيئة الآثار تؤكد اليوم فى ردها المنشور على هذه الصفحة أنها لم توافق مطلقا على قيام هيئة الأبنية التعليمية بهدم هذه القصور ، وأن الأبنية التعليمية تتحمل مسئولية الهدم كاملة ..

وتؤكد هيئة الآثار فى ردها أن قرار محافظة القاهرة فى شهر فبراير الماضى كان هدفه منع هذه الجريمة ..

ورغم تقديرى الشديد لهذا الكلام ، إلا أننى أعتقد أن هذا القرار جاء متأخرا .. لأن الهدم تم منذ سنوات بعيدة ، فأين كانت محافظة

القاهرة ؟ ، وأين كانت هيئة الآثار ، وأين كنا جميعا من هذه الكارثة ؟

وليس المطلوب الآن البكاء على اللبن المسكوب ، ولكن المطلوب هو الوصول إلى صيغة ما بين أجهزة الدولة المسئولة لمنع تكرار هذه الجريمة ..

والقضية تنحصر الآن في ثلاثة أطراف أساسية يجب أن تتحمل مسئوليتها ..

– محافظة القاهرة .. وتقع عليها الآن مسئولية عدم الاقتراب من القصور الباقية ، طبقا لقرار المحافظة بمنع عمليات الهدم .. فالمحافظة الآن مسئولة عن صيانة هذه القصور وعدم الاقتراب منها أو الموافقة لأى جهة كانت على هدم جدار فيها .

– إن قانون الآثار يعطى هيئة الآثار الحق فى إضافة أى مكان أثرى فى مصر ، ومن هنا يصبح من حقها أن تعلن وصايتها ومسئوليتها عن القصور الباقية ، والقانون يعطيها هذا الحق ، فلماذا لا تستخدم حقها فى استخدام القانون .

– على هيئة الأبنية التعليمية أن توقف عمليات هدم القصور ، تنفيذا لقرار محافظة القاهرة ، وفى نفس الوقت تقوم وزارة التعليم بتسليم القصور الباقية لهيئة الآثار ..

وهنا سوف تبرز مشكلة هامة وخطيرة حدثنى فيها د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم ، وهى البحث عن أماكن بديلة تقام عليها المدارس الجديدة التى كان من المفترض أن تقام على نفس المدارس القديمة..

والحل هنا يحتاج إلى شيء من التنسيق والتشاور بين كبار المسئولين على مستوى الحكومة ، للبحث عن مناطق بديلة لتقام عليها هذه المدارس .

وليس من الضرورى أن يتم إخلاء هذه المدارس مرة واحدة .. ولكن يمكن أن توضع خطة على خمس سنوات أو أكثر بحيث يتم بناء المدارس الجديدة فى مواقع جديدة مع إخلاء هذه القصور على مراحل زمنية معقولة ..

وهذا الحل فى تقديرى سوف يجعل العبء معقولا سواء على محافظة القاهرة التى ستقوم بتوفير الأماكن الجديدة لبناء مدارس بديلة بالتعاون مع وزارة التعليم أو بالنسبة لهيئة الآثار التى ستقوم بترميم هذه القصور والمحافظة عليها وصيانتها ..

ولاشك أن استغلال هذه القصور بعد ذلك يمكن أن يوفر على الدولة جهوداً كبيرة تبذلها فى بناء مكتبات أو قصور ثقافة جديدة أو مراكز فنية وثقافية .

إننى أعلم أن الدكتور الجنزورى رئيس الوزراء أعطى هذا الموضوع أهمية كبيرة فى الأيام الأخيرة ، ولاشك أن الإجراءات الخاصة بعمليات الهدم والمناطق الأثرية التى جاءت فى اللائحة التنفيذية لقانون البناء سوف تسد ثغرات كثيرة ، كانت وراء هدم عشرات القصور وإنشاء الأبراج التى استباحت كل جوانب الجمال والحضارة والعمارة فى القاهرة ، وأرجو أن تساهم هذه اللائحة فى وقف عشوائيات البناء فى مصر بكل أشكالها .

ولقد حزنت كثيرا حينما سمعت قصة بيع فندق المريديان ، وما تم فى هذه الصفقة الغريبة .

لقد باعت الدولة الفندق منذ سنوات قليلة بمبلغ ٧٥ مليون دولار ، وهنا ليس لنا تعليق أو اعتراض .. ولكن أن تشمل الصفقة ضمن بنودها الأساسية حق المشترى فى بناء برج ارتفاعه ٤٥ طابقا فى قلب النيل، وعلى حديقة الفندق، فهذا بند مشبوه ومريب .. لأن معنى ذلك أن المشترى حصل على الفندق بلا مقابل.. أو أنه حصل على برج ارتفاعه خمسة وأربعون طابقا «فوق البيعة»، وهذا ليس منطق استثمارات اقتصادية ولكنه منطق يتناسب مع صفقات وكالة البلح.

قد تكون الحكومة الحالية غير مسئولة عن هذه الصفقة .. ولكننى أشعر أن فى هذه الصفقة .. ظلما بينا وتحايلا غريبا ..

إنه اتفاق فيه تركيبه عجيبة .. بيع فندق فى أجمل موقع على نيل القاهرة .. ثم الحق فى إقامة برج على أنقاض حديقة الفندق ومواقف السيارات فيه .. ثم تحديد ارتفاع هذا البرج، بحيث سيكون أعلى مبنى فى القاهرة، وتقديم ترخيص البناء بهذه الشروط المخيفة، كل هذه الصفقات بمبلغ ٧٥ مليون دولار .. !!

إن مثل هذه التجاوزات المخيفة تسىء إلى برنامج الخصخصة، مهما كانت نواياه الطيبة .. ولسنا ضد سياسة الحكومة فى ترشيد قطاعات الإنتاج، ولكننا ضد مثل هذه التجاوزات غير المفهومة ..

فأنا لا أتخيل دولة فى العالم تبيع فندقا كبيرا فى حجم المريديان.. وبموقعه الخرافى ومعه برج فى وسط النيل برخصة تتضمن خمسة وأربعين طابقا، ومساحة من الأرض تزيد على خمسة آلاف متر فى أجمل موقع على نيل القاهرة، بهذا المبلغ الذى لا يتناسب إطلاقا مع قيمة الفندق وتوابعه من الإنشاءات..

إن لائحة قانون البناء الجديدة يمكن أن تضع حدا للتجاوزات المخيفة فى إنشاء الأبراج والتكدس المعمارى القبيح على شواطئ النيل.. وأن تمنع هدم القصور التاريخية وتحافظ على حرمة الأماكن الأثرية.. وتعيد الانضباط إلى هذا الجانب الخطير فى حياتنا بعيدا عن

العشوائيات والإرتجال وعمارة القبح التى استباحت كل جوانب الجمال فى حياتنا.

وما حدث فى برج المريديان حدث فى مناطق كثيرة أخرى على شواطئ النيل حيث التجاوزات المخيفة فى الارتفاعات والتكدس .. والقبح.. والعمارة الرخيصة ..

ولا يمكن الفصل بين كل هذه التجاوزات .. لأن هدم القصور العريقة هو الأب الشرعى لإنشاء الأبراج العشوائية القبيحة .. والمسئولية أولا وأخيرا تقع على نفوس ضعيفة فرطت فى القصور واستباحتها وسمحت بالتجاوزات ووافقت عليها.

وكانت الضحية فى هذا كله عاصمتنا العريقة القاهرة أجمل عواصم الدنيا وأعمقها تاريخا وحضارة..

والذى أرجوه الآن أن يجمع د. الجنزورى رئيس الوزراء أطراف «قضية القصور» لأن كل طرف يلقى المسئولية على الآخر .. فالتعليم تتهم المحافظة .. والآثار تتهم الأبنية التعليمية، وبين الأطراف الثلاثة غابت الحقيقة .. والمطلوب الآن أن يجتمع هؤلاء جميعا تحت مظلة الحكومة لمناقشة جوانب القضية ووضع حلول لها ، وتبقى لنا كلمة أخيرة .. كانت القاهرة فى يوم من الأيام تتجمل بأعظم مجموعة من

القصور التاريخية العريقة، وللأسف الشديد لقد فرطنا فى الكثير من حبات هذا العقد الفريد، ولم يبق غير مجموعة قليلة مازالت تضىء عاصمتنا الجميلة ، ويجب أن نحافظ عليها ... وأرجو أن تضع قوانين البناء الجديدة التى أصدرتها حكومة د. الجنزورى حدا لعشوائيات البناء .. وإن كان الأهم أن نضع حدا لعشوائيات اختيار البشر فى بعض مواقع القرار.

أجيال .. بلا ذاكرة !

كانت حصة التاريخ فى مدارسنا هى أول نقطة ضوء تتسلل داخلنا وتروى لنا ذكريات ماضينا العريق .. وأدركنا يومها أننا نعيش فى وطن يختلف عن كل الأوطان .. قد تكون هناك أوطان أغنى .. أو أقوى .. أو أكبر .. ولكننا وطن صنع الزمن .. ولم يصنعه الزمن .. شعرنا يومها أن لنا جذورا تمتد بعمق الحياة .. وأننا أصحاب حضارة ودور ومسئولية ، ولم نكن أبدا شيئا عابرا فى مسيرة البشر والأحداث..

قد يكون الحاضر قد غير بعض ملامح الصورة فتوارى بريقها ، ولكن الانكسارات مهما طالت ستبقى حدثا عابرا فى مسيرة الشعوب .

وفى حصة التاريخ عرفنا رموزنا الوطنية والعسكرية والفنانين والأدباء والعلماء .. وفتحنا أعيننا على معابد مصر الفرعونية بكل رموزها الشامخة .. وكنائس مصر القبطية بكل تراثها .. وعانقنا مصر

الإسلامية بمساجدها وفتوحاتها وعلمائها وأزهرها الشريف .. ثم لمحناها حائرة ساخطة بين العثمانيين والمماليك والاستعمار البغيض .

قرأنا هذا كله فى حصة التاريخ ، وتعلمناه فى مدارسنا ، وكان اللبنه الأولى التى شكلت مشاعر الانتماء والولاء والأصالة لتراب هذا الوطن أرضا وحضارة وتاريخا .

هذه هى حكايتنا مع التاريخ ابتداء بحصة التاريخ فى المدرسة وانتهاء بمحاضرات د. غربال .. ود. محمدأنيس رحمهما الله . فى رحاب جامعة القاهرة ، وفيها تعلمنا قيمة التاريخ فى تكوين شخصية الإنسان وثقافته ورؤيته للأشياء .

إن هناك محاور أساسية لها خطورتها فى تكوين وجدان الإنسان.

أول هذه المحاورهو الدين .. ذلك الضوء الربانى الذى يضع الإنسان على أعتاب إحساس عميق باليقين فى حياة كل مافيها يحمله إلى الشك ابتداء بمولده وأسرار خلقه .. وانتهاء بموته وحيرته أمام هذا اللغز الأبدى .

يأتى بعد ذلك دور الفن ، وهو منطقة تعطى الحياة جلالا وترفعا وقيمة وهو الغذاء الدائم للوجدان البشرى ..

وما بين الدين والفن يقف التاريخ عاملا مؤثرا للغاية ؛ لأنه يمثل الجذور التى ترتكز عليها شخصية الإنسان بكل عناصر الثراء والانتماء فيها .

من هنا تأتى قيمة التاريخ ..

ولقد فوجئت فى الأسبوع الماضى بصديق عزيز يخبرنى أن نظام الثانوية العامة الجديد الذى بدأ تنفيذه هذا العام ، جعل من التاريخ مادة اختيارية ، فليس الطالب ملزما بدراسة تاريخ وطنه فى الثانوية العامة ، إلا إذا رغب هو فى ذلك .

ورجعت لقانون الثانوية العامة الجديد وتأكدت من صدق الرواية .. فالتاريخ مادة اختيارية فى شعبتيها الأدبى والعلمى .

والشىء الغريب أن موضوع التاريخ بالذات لم تتم مناقشته فى الادارات التعليمية أو اللجان الخاصة بإعداد المناهج ، وتحول تاريخ مصر إلى مادة اختيارية غير ضرورية فى أهم شهاداتها الدراسية ، وهى الثانوية العامة ، حتى أنه لايتساوى فى الأهمية مع اللغات الأجنبية التى يدرسها الطلبة والتى وضعها القانون فى قائمة المواد الأساسية الملزمة لكل الطلبة .

والأغرب من هذا كله ، أن مجلس الوزراء وافق على مشروع القانون دون أن يلتفت إلى هذا التجاوز المهين .. وأن مجلس الشعب وافق على القانون دون أن يتوقف عند هذا الخطأ الجسيم ، ولايمكن لنا أن نتصور ألا يكون التاريخ مادة أساسية فى أهم فترة فى عمر أبنائنا .. وأهم شهادة علمية تحدد مستقبلهم وتوجهاتهم العلمية والإنسانية والوطنية .

والذى أعرفه ان دول العالم بلا استثناء تدرس تاريخها وتعتبره مادة أساسية .. بل إن أقسام اللغات فى الجامعات المصرية تدرس لأبنائنا تاريخ الدولة التى يتعلمون لغتها .. ولهذا يدرس طلبة قسم اللغة الإنجليزية تاريخ إنجلترا .. وكذلك قسم اللغة الفرنسية وأقسام اللغات الأخرى .

ولكننا فى مصر نسعى لإلغاء تاريخنا من عقول أبنائنا ..

والحقيقة أن مناهج التاريخ فى مصر كانت مستهدفة منذ فترة بعيدة حتى تم تهميشها تماما فى الثانوية العامة بنظامها الجديد .. لقد تغيرت مناهج التاريخ كلها بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد مع اسرائيل، وتم حذف أجزاء كاملة من تاريخ الوطنية المصرية والمعارك العسكرية والصراع العربى الإسرائيلى .

فهل أصبح مطلوبا منا الآن أن نمسح ذاكرتنا وننسى رموزنا ونلغى تاريخنا ونصير شعبا بلا جذور ؟!

هل أصبح مطلوبا من أبنائنا نسيان رمسيس وتحتمس وخالد بن الوليد وطارق بن زياد ، وعمرو بن العاص ، وصلاح الدين ، والسلطان قطز ومحمد على والخديوى إسماعيل وعمر مكرم وعبدالله النديم وعرابى وسعد زغلول وجمال عبدالناصر والسادات ؟!

هل أصبح مطلوبا منا أن ننسى سليمان الحلبى .. وجول جمال وجواد حسنى .. وعبدالمنعم رياض ؟!

هل أصبح مكتوباً علينا أن ننسى الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وقاسم أمين ولطفى السيد والقعاد وطه حسين ؟!.

هل أصبح مفروضاً علينا أن نسكت صوت أم كلثوم وعبدالوهاب وعبد الحليم والسنباطى من أجل عيون مادونا ومايكل جاكسون وسلفستر ستالونى والمصارعة الحرة واتفاقيات السلام مع إسرائيل والأغانى الهابية ؟!

هل أصبح مطلوباً منا تخريج أجيال بلا ذاكرة.. ولا انتماء.. ولا مسئولية..

إنها محاولة واضحة لمسخ الشخصية المصرية وتشويه معالمها.. وهذا لا يمكن أن ينفصل عن جوانب أخرى نشاهدها وتجرى أمام عيوننا كل يوم ونحن نرى ولا نتكلم .

- إن التغيرات الحادة والمخيفة التى حدثت فى أجيالنا الأخيرة، مظهراً وسلوكاً وانتماء ، تتطلب منا وقفة حاسمة.. هذا الشباب الحائر المتردد فى ملبسه ومأكله ومظهره وسلوكه وضياعه بين المخدرات والإرهاب .. يحتاج إلى مواجهة صريحة مع أنفسنا..

فليست هذه هى مصر ، ولا هذا شبابها .. ولهذا أكاد ألمح يداً خفية تتربص بنا من كل اتجاه ، وهدفها الأساسى تخريب الأجيال الجديدة وتشويه فكرها وسلوكها ونظرتها للحياة .

إن ناطحات السحاب التى أطاحت بكل جوانب الجمال والجلال فى العمارة المصرية وقصورها العريقة تستهدف جانباً مهماً فى الشخصية المصرية بتاريخها المعمارى العريق ..

إذا كان البعض منا قد بهرته زخارف الأبراج العالية ، فإن العالم كله ما زال يقف مذهولاً أمام اثرنا التى لا نعرف قدرها وقيمتها .

- إن تراجع اللغة العربية فى حياتنا وسلوكياتنا وشوارعنا ومناهج تعليمنا ووسائل إعلامنا ، يهدف إلى اقتلاع جزء عزيز من جذورنا.. ولا يعقل أن تكون درجات اللغة العربية فى الثانوية العامة ونظامها الجديد خمسون درجة موزعة على عامين دراسيين كل منهما خمسة وعشرون درجة.. فهل هناك امتهان للغة العربية أكثر من هذا ؟!

- إن المهرجانات الصاخبة التى تحمل لافتة الثقافة ، ما هى إلا بالونات إعلامية هدفها الأساسى مسخ الشخصية المصرية بكل مقوماتها.. ومن الغريب أن ندفع ملايين الجنيهات فى إقامة هذه المهرجانات الصاخبة ، بينما لا تجد قصور الثقافة فى الأقاليم قروشاً لشراء كتاب لآلاف الشباب من الباحثين عن الثقافة الجادة .

فى كل يوم نشاهد زفة جديدة نسميها مهرجاناً.. فهذا مهرجان الإسماعيلية للفنون الشعبية .. ومهرجان الإسماعيلية للفيلم التسجيلى.. ومهرجان الاسكندرية السينمائى.. ومهرجان القاهرة السينمائى .. ومهرجان المسرح التجريبى .. ومهرجان الدراما التليفزيونية.. ومهرجان الأغنية.

ونكتشف بعد ذلك كله أن مسرح الدولة أنتج هذا العام مسرحية واحدة وأن السينما المصرية قدمت سبعة أفلام .. فهل هناك استهتار بدور الفن المصرى أكثر من هذا ؟.

- هذه الطبقة الجديدة التى داست على كل مقومات الشخصية المصرية واستباحت جذورها وأخلاقياتها ، أصبحت سيفاً مُصْلَتاً على رقاب الجميع ، وفرضت فنونها وأذواقها وسلوكياتها على المجتمع كله.

- أن تتحول مصر إلى دولة مستوردة للقطن وهى التى كانت يوماً ما أهم دولة مصدرة له فى العالم ، واختفى ذهبنا الأبيض أمام الخيار والكانتلوب والسياسات الخاطئة.

- أن تشهد بنوك مصر وهى من أهم رموز استقلالها الوطنى والاقتصادى ، هذه التجاوزات الخطيرة التى تهدد أخطر وأهم أعمدة اقتصادنا القومى ، وهو الجهاز المصرفى ، ويواكب ذلك فى وقت واحد، إصرار غريب على بيع كثير من الأصول الاستثمارية والمشروعات الانتاجية المهمة دون تنسيق أو دراسة متأنية .

- هذه الهجمة الشرسة من المعاهد التعليمية اللقيطة التى ظهرت فى حياتنا فجأة لتحصل على ملايين الجنيهات من الطلبة المساكين.. أن هذه البوتيكات التعليمية التى انتشرت كالأوبئة تمثل أكبر خطر على العملية التعليمية فى مصر .. فقد ظهرت فجأة وبلا مقدمات وما زال ظهورها المفاجئ يمثل لغزاً أمام الجميع .

هذه التحولات الخطيرة فى حياتنا لا تنفصل أبداً عن تهميش دراسة التاريخ فى مدارسنا ، أو تراجع اللغة العربية أو بيع الأصول الاقتصادية أو الانحدار الفنى الذى نشاهده أو التغير فى سلوكيات الناس .

ولهذا لم يكن غريباً أن يبخل علينا التليفزيون المصرى ببرنامج مناسب عن الز عيم الراحل جمال عبد الناصر فى ذكرى وفاته الخامسة والعشرين .

إن أوروبا بكل ثقلها تصرخ الآن أمام النموذج الأمريكى الذى يحاول أن يقتحم حدودها فى كل شئ ابتداء بالفن وانتهاء بالثقافة والعمارة ومكونات البشر .

والشئ الغريب أن نسمع من بيننا من يقول أن هناك محاولات لإعادة توزيع الأدوار فى المنطقة .. إن مصر أكبر من هؤلاء الذين يحاولون توزيع الأدوار.. وهؤلاء المنافسون لا يقفون بجوار محافظة

واحدة من محافظات مصر بناسها .. ومواهبها وإنتاجها ومقوماتها التاريخية والإنسانية .. فماذا جرى لنا .. وكيف اختلطت الأشياء فى عيوننا وفقدنا القدرة على التمييز بينها بهذه الصورة؟..

ولكن من هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون..

إن هناك أيدياً خفية تحاول بث الفرقة بيننا وبين أنفسنا ، لكى تفقدنا إيماننا بقدراتنا ، وأهم هذه القدرات أننا أصحاب تاريخ وصناع حضارة.

إن أمريكا لا يهمها التاريخ من قريب أو من بعيد .. ويهمها جداً أن تختفى ملامحه من كل أرجاء الدنيا ، لأنها دولة بلا تاريخ.. وإسرائيل لا ترى شيئاً غير تاريخ بنى اسرائيل .. ولا تعنيها غير مصالحها .. ولكننا شعب له مقومات ورموز وحضارة .. وكل محاولة لتشويه الشخصية المصرية يجب أن نتصدى لها ابتداء بالطعام الذى نأكله، وانتهاء بتدريس التاريخ لأبنائنا فى المدارس .. والخطر الأكبر أن المسلسل واحد ، وأن المشاهد متعددة ، وعلى حكماء هذا الوطن أن يدركوا حجم المسئولية.

ولا أدرى كيف يخرج بنا وزير التعليم الدكتور حسين كامل بهاء الدين من هذا المأزق مع تاريخنا .. وكيف وقع فى هذه المصيدة .. ومن الذى أوقعه فيها ..؟.

إذا كان ذلك اختياراً .. فهى كارثة..

وإذا كان بغير علم .. فهى خسارة..

وفى الحالتين مطلوب من وزير التعليم أن يصلح ما أفسده قانون الثانوية العامة ، ويعيد التاريخ معززاً مكرماً إلى المواد الأساسية فى الثانوية العامة .

إن د. حسين كامل بهاء الدين وزير سياسى ، ولا أدرى كيف غاب عنه هذا الموضوع .. لقد كان أميناً لمنظمة الشباب ، وكان شاهداً سياسياً على أكثر من عصر .. وكان شريكاً فى بعض الأحيان.. وهو قبل هذا كله طبيب الأطفال .. فكيف قبل السياسى المحنك وطبيب الأطفال البارع أن يخرج من مدارسنا فى عهده شباب بلا ذاكرة.. وعقول بلا تاريخ.. وأجيال بلا جذور ؟! لابد أن يعود تاريخ مصر مادة أساسية فى الثانوية العامة كما كان .. وعلى وزارة التعليم أن تصحح خطأها .. وعلى مجلس الوزراء أن يراجع قراره.. وعلى مجلس الشعب أن يقرأ القوانين بعناية أكثر قبل أن يوافق عليها بالإجماع .

العمل الوطنى .. بين مسئولية القرار .. ومسئولية القلم

ما احوجنا الآن إلى كل كلمة صادقة .. وكل جهد خلاق .. وكل موقف مسئول وحريص على مصالح هذا البلد .. والنقد لايعنى أبدا التجريح أو الهجوم أو الإساءة .. ولكنه يمثل نقطة الضوء التى يزداد معها إيماننا بأن مقاييس الأشياء قد تختل أحيانا لتستعيد توازنها .. وأن وجه الحياة قد تصيبه بعض التشوهات، ولكنه سرعان مايعود إلى تناغمه وتناسقه وشموخه القديم .

والنقد محاولة جادة ومسئولة لإعادة التوازن للأشياء سلوكا .. ووعيا .. ومسئولية .

والمشكلة عندنا الآن ان هناك حساسية شديدة لدى بعض أصحاب القرار باختلاف درجاتهم ومواقعهم من النقد، ويتصور بعض هؤلاء أن وراء هذا النقد هدفا أو غاية .. أو هو محاولة للإساءة بلا مبرر .. رغم

أن الهدف فى حقيقته هو الحرص الشديد على مصالح هذا البلد وهو ملك لنا جميعا ولأجيال ستجيء من بعدنا، وسوف نحاسب أمامها يوما ونتمنى أن يكون كشف حسناتنا اكبر بكثير من أخطائنا .

ولأن المسئولية خدمة عامة .. والكتابة أيضاً خدمة عامة فالهدف واحد والغاية واحدة حتى وان اختلفت الوسائل وتعددت الطرق .

فالمسئول فى موقعه يؤدى دورا .. وهذا الدور يرتبط بمواقف وإجراءات .. وحسابات .. وأخطاء .. ومزايا .. ومادام هناك عمل ما فهناك احتمال كبير للخطأ .. لأن الذين لايخطئون .. هم فقط الذين لايعملون .

والمسئول له رأى وله فكر .. وله أسلوب .. ولايعنى ذلك أبدأ ان رأيه دائما على صواب .. ولهذا فإن الحوار قضية ضرورية بين صاحب القرار وصاحب القلم .. فإذا كانت مسئولية القرار هى الفعل .. فان مسئولية القلم هى تقييم هذا الفعل .

ومن هنا كانت العلاقة دائما مهمة وضرورية بين القرار والقلم .. وفى نفس الوقت فإنها تصل أحيانا إلى درجة من درجات الخلاف أو الصدام أو المواجهة .

وبعض المسئولين عندنا يضيقون بالنقد .

ويرجع ذلك إلى أننا اعتدنا عبر سنوات طويلة على سياسة الرجل الواحد .. والرأى الواحد .. والقرار الواحد .. ومن هنا كان حق الحوار أو النقاش أو الرفض قضية متعبة لكل من يحاول ذلك .. وقد اختلفت درجة المتاعب ابتداء بالسجون والمعتقلات، وانتهاء بالمصادرة ومنع الكتابة.

وهناك سبب آخر لضيق أصحاب القرار بعمليات النقد، وهو أن بقاء بعضهم فى مواقعهم وقتا طويلا يشعرهم أحيانا بأن الموقع تحرك من منطقة المسئولية إلى منطقة الملكية، وهذا تجاوز غير مقبول .

وبجانب هذا فإن البعض الآخر يفسر النقد احيانا بأنه يرجع لأسباب ذاتية أو شخصية؛ لأننا اعتدنا فى أحيان كثيرة أن نرجع تفسير المواقف إلى دوافع شخصية أو ذاتية .

وينسى هؤلاء أن النقد فى حقيقته خدمة مجانية تقدم للمسئول وخاصة إذا اتسم هذا النقد بالنزاهة والموضوعية وصدق النوايا .

وحينما تصل الأمور إلى مايشبه «الصدمة» سواء للرأى العام أو لصاحب القلم نفسه فإن قضية النقد تصبح أكبر من صاحب القرار وصاحب القلم معا .. وهنا لايمكن أن تتساوى أبداً جريمة طبيب نسى ميعاد زيارة مريض .. مع طبيب آخر نسى أدوات الجراحة فى بطن المريض .. رغم أن الجريمة واحدة .. وهى النسيان .

وما أكثر الصدمات التى واجهها أصحاب الأقلام والرأى العام فى الفترة الأخيرة .. لأنها تمس جوهر حياتنا وتاريخنا وقيمتنا كشعب يدرك مسئولياته .

- حينما يفكر البعض فى إقامة طريق دائرى بجوار منطقة الأهرامات فى الجيزة ويقف اليونسكو منددا بهذا العمل غير الحضارى .. فإن هذه واحدة من أكبر الصدمات التى واجهها الرأى العام.

- وحينما يكتشف البوليس الإنجليزى واحدة من أكبر جرائم التهريب التى تعرضت لها آثار مصر ونحن هنا نائمون .. فهذه كارثة ..

- حينما تقيم محافظة القاهرة أساسات كوبرى ١٥ مايو تحت كوبرى أبو العلا ثم نبدأ فى البكاء على كوبرى ابو العلا ونكتشف أن الخسارة ستكون خسارتين .. فلو أننا أبقينا على كوبرى أبو العلا فلابد أن نضحى بالأساسات التى أقمناها لكوبرى ١٥ مايو .. وإذا قررنا استكمال كوبرى ١٥ مايو فلابد من إزالة كوبرى أبو العلا .. وفى الحالتين مطلوب ١٧ مليون جنيه لنقل كوبرى أبو العلا، فأين كان التخطيط فى هذا كله حتى نجد أنفسنا فى هذا الموقف الذى لانحسد عليه .

- وحينما يفكر البعض منا فى إقامة مدينة للملاهى فى جزء من حديقة الأورمان فهذا عمل غير حضارى .. لأن للحدائق حرمتها ..

والأشجار العتيقة لاتقل قيمة وأهمية لدى الشعوب المستنيرة عن أى جانب اخر من تراثها وحضارتها .. الأشجار العتيقة مثل الكتب .. والتماثيل .. والأماكن الأثرية العريقة التى تشع منها روائح الزمن والتاريخ .

– وحينما يفكر البعض فى إنشاء محلات للأطعمة فى حديقة الأسماك فهذا أيضا انتهاك لحرمة الحدائق العامة وعدوان على كل ما هو جميل فى حياتنا .

– وحينما يفكر البعض فى بيع جزء من قصر محمد على بالمنيل لإقامة فندق أو عمارات أو خوازيق خرسانية .. فهذا أيضا جناية فى حق التاريخ .

– وحينما تقوم كراكات وزارة الرى بردم جزء من النيل تحت دعوى إقامة كورنيش جديد وبقرار من مجلس الوزراء فكان ينبغى أن نسأل المسئول عن هذا القرار اولاً عن حجم المخالفات التى تعرضت لها شواطىء النيل من أسوان للإسكندرية وعشرات المبانى العشوائية التى انتشرت على النهر فى أكبر مظاهرة للقبح تشهدها مصر فى عصرها الحديث مابين نواد .. وأبراج .. وتعديات .. ثم تختار وزارة الرى موقعا غريبا .. ومريبا لكى تقيم عليه كورنيشا جديدا وتترك آلاف التعديات بلا حساب أو عقاب أو مساءلة .

هذه نماذج لبعض الصدمات التى تعرضنا لها فى الفترة الأخيرة .. وهى كما يبدو لاتتم بصورة عشوائية، ولكنها دقيقة جدا فى اختياراتها ومواقعها وتوقيتات تنفيذها .

وهنا تصبح مسئولية القلم أكبر بكثير من لغة الحسابات والتجاوزات والمصالح .. لأنها مصلحة وطن قبل ان تكون مصلحة أفراد سواء كانوا على كراسى السلطة أم حالمين بها أم بعيدين عنها .

إن جسم الإنسان قد يتعرض أحيانا لبعض الأمراض العارضة التى لاتمثل خطورة على حياته .. ولكن هناك بعض الأمراض التى تحتاج إلى تشخيص دقيق وعلاج حاسم لأنها تحمل أخطارا تصل لدرجة التدمير .

وما يحدث فى جسم الإنسان يحدث أيضا فى مسيرة الوطن حينما تبدو فى الأفق بعض الظواهر الغريبة التى تمثل خطرا على كيان هذا الوطن فى قيمته .. وتاريخه .. ومسئوليته ودوره ..

وهنا يصبح التشخيص ضرورة .. ويصبح العلاج أمرا لامفر منه .. وتصبح المواجهة مسئولية الجميع .

رفاق السلاح ... وأخلاق الفرسان

لم تكن ثورة يوليو مجرد حدث عابر فى تاريخ الشعب المصرى ... لقد كانت نقطة تحول خطيرة فى مسيرة الزمن والبشر والأحداث ، وكانت لها تجاوزات ضخمة دفعنا ثمنها ... وكانت لها إنجازات لاينكرها إلا جاحد .. وما بين الإنجازات والتجاوزات يبقى شيء على درجة كبيرة من الأهمية، إن تاريخ الشعوب يمثل ذاكرتها الحية، ومن الخطأ الجسيم أن تتعرض هذه الذاكرة لعمليات تشويه وتعتيم وتضليل سواء كان ذلك بحسن نية أم سوء قصد لأن النتيجة المؤكدة لذلك هى أن تنبت الأرض أجيالا بلا ذاكرة وأشجارا بل ثمار وأزمنة بلا هدف أو غاية أو قضية .

وفى الفترة الأخيرة خرجت علينا صفحات طويلة من المذكرات كتبها رجال شاركوا يوما فى صنع القرار وكانوا على رأس السلطة التنفيذية .. وكتبها حراس وأطباء وطهاة وسائقون ومخبرون كانوا

قريبين من أصحاب القرار .. وما بين الكبار وغير الكبار غابت حقائق كثيرة وتهاوت قيم أصيلة كان ينبغى أن نحافظ عليها فى كتابة تاريخنا ومتابعة أحداثه .

والمشكلة الرئيسية أن هذه المذكرات تتناول رجالا أصبحوا الآن فى رحاب الله، فلاهم قادرون على تكذيب مايقال ولاهم قادرون على تصحيح الأخطاء والمواقف ... ومن هنا فإن التجاوز فى سرد الحقيقة يصبح تجنيا على التاريخ وامتهانا لرجال لايملكون حق الرد أو التعقيب .. وربما كان بعضهم يهمس إلى نفسه ببعض الخواطر فى لحظة ألم أو ضيق أو مرارة ... فكيف نسطر ذلك للناس ونعتبره تاريخا وحقائق ثابتة .

وفى لغة العسكريين كلمة أصيلة ومصطلح عريق وهو «رفقة السلاح» . ورفاق السلاح مجموعة من الأشخاص جمعتهم محنة أو قضية أو موقف أو غاية ، وربما اختلطت دماؤهم فى لحظة عطاء ، أو سقط بعضهم فى موقف تضحية ... وهى من أكثر العلاقات عمقا فى تاريخ العسكرية العالمية لأنها لحظة نادرة فى عمر الإنسان قد لاتتكرر كثيرا.

ويتعجب الإنسان أن يقف رفاق السلاح هذا الموقف من بعضهم البعض وهم يوجهون السهام القاتلة لصدور بعضهم بعضا ..

فإذا كان الهدف كشف الحقيقة فما أجمل أن نقول الحقيقة دون تزيد أو ادعاء أو إساءة .. وإذا كان الهدف تبرئة الذمة فإن هذا حق للجميع بشرط ألا يكون ذلك على حساب ذمم الآخرين ..

وإذا كان الهدف تصفية الحسابات فلا ينبغى أبدا أن تكون الحقيقة هى الضحية الأولى فى ذلك .

إن ثورة يوليو ظلمت أسماء كثيرة من أبنائها كما ظلمت كثيرا من أبناء هذا الشعب .. وإذا كانت نيرانها قد أكلت أعدادا كبيرة من المواطنين العاديين الابرياء فإن هذه النيران نفسها قد أكلت كثيرا من رجال هذه الثورة ومن حق الإنسان ان يحزن لما أصابه سواء كان فى موقع السلطة أم بعيدا عنها ولكن بشرط واحد الا يفرط فى قدسية الحقيقة وأمانة التاريخ .

وبقدر ما ظلمت ثورة يوليو البعض وأساءت اليهم .. فقد أنصفت البعض الآخر وأعطتهم فوق مايستحقون ... وما بين الإساءة والإنصاف فإننا لانطلب من هؤلاء وهؤلاء شيئا غير أن يحترموا تاريخ هذا البلد ويصونوا ذاكرته .. فلا يدعون بطولات كاذبة ولايسيئون لرموز مهما اختلفنا عليها فإنها صاحبة دور فى حاضر هذا الوطن .

ووسط هذا كله خرجت تجاوزات كثيرة ... فالرئيس «فلان» كان عميلاً ... والرئيس فلان «أبوه بوسطجى » وهذا نصب على سيدة

فلسطينية .. وهذا لم يحصل على التوجيهية .. وهذا باع وطنه وتراب أرضه .

أشياء كثيرة يخجل الإنسان من ذكرها أو إعادة ترديدها فى هذه السطور ، والحقيقة أن هذه الرموز الوطنية كانت لها مواقفها وتاريخها الحافل .. فإذا كان والد عبد الناصر «بوسطجياً » كما أشارت مذكرات أحد حراس الرئيس نجيب .. فإن عبد الناصر جزء عزيز من تاريخنا قد نختلف كثيراً مع بعض أحداثه وقد نرى فيها تجاوزات وتجاوزات ، ولكنه سيبقى دائماً علامة بارزة فى تاريخ مصر الحديث .

والرئيس السادات الذى اتهمه أحد ثوار يوليو بأنه «عميل» هو نفسه السادات الذى خاض حرب أكتوبر بشرف وأمانة ومعه قواتنا المسلحة الباسلة .. وهو نفسه الذى استرد الأرض وأعاد الكرامة .

وحتى الرئيس نجيب نفسه كنا دائماً نسعى إلى لحظة صدق ووفاء تعيد للرجل حقه الضائع ودوره المظلوم وأيام سجنه الأليمة ودوره المجهول فى تاريخنا المعاصر .

هؤلاء جميعاً ، نجيب وعبد الناصر والسادات ، جزء عزيز من تاريخ مصر ، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.. وهؤلاء قادوا السفينة يوماً وسط رياح قاسية وظروف دولية غاية فى الصعوبة .. وحسب مهارة كل ملاح كانت نتيجة الرحلة كسباً أوخسارة .

أما أن نقف الآن ونوزع الاتهامات بالعمالة والخيانة فهذه ألفاظ لاينبغى أن تدخل قاموس الحقائق التاريخية ويرددها من كانوا يوماً رفاق سلاح بكل ما تعنى الكلمة من أخلاقيات الفرسان.

حينما طلب عبد الناصر مساعدة الروس لم يكن خائناً .. وحينما طردهم السادات لم يكن أيضاً خائناً .. وكلاهما كان يرى الموقف حسب الظروف والتحولات وتوازنات القوى فى العالم .

إننا لا نطالب بتبرئة أحد بدون وجه حق .. ولكننا نطالب أيضاً بألا يظلم أحد دون وجه حق .

وحينما يقف الإنسان على منصة التايرخ يروى أحداثه فيجب أن يدرك أنه يقف فى أقدس رحاب .. لأن التاريخ قادر على كشف المزيف وتعرية الأدعياء وما أكثرهم فى تاريخنا الحديث .

لقد شاركت أقلام كثيرة فى تزييف تاريخنا من بعض أصحاب القرار وأشباه الكتاب ، وسماسرة المواقف وتجار الشنط الصحفية ، وبجانب هؤلاء كانت هناك كتابات شريفة غايتها الحقيقة .. والحقيقة وحدها . ولم يسع هؤلاء إلى بريق زائل أو كسب سريع .. ولكنهم يعتبرون رواية التاريخ أمانة فى أعناقهم أمام الله .. وأمام الوطن .. وأمام الحقيقة .

ولهذا تصبح كتابات وأوراق ومذكرات الذين شاركوا يوماً فى صنع القرار .. منطقة فى غاية الأهمية والخصوصية ويرجع ذلك لأسباب عديدة :

- إن هؤلاء كانوا يوما من أصحاب القرار .. وكانوا أقرب الناس إلى صناعته وصياغته وإصداره ..

ولهذا فإن كلامهم يتمتع بمصداقية خاصة ، ويجب ان نصدقهم حينما يقولون ...

- وبجانب هذا فان هؤلاء الآن يعيشون مراحل من العمر انسحبت فيها الأضواء وخبا البريق ولم يعد أمام الإنسان وهو يمشى إلى رحاب ربه غير أن يقول كلمة صادقة امينة لاينتظر منها جزاء ولاشكورا .

- وقبل هذا كله فإن هناك أجيالا جديدة تقرأ هذا الكلام وهو يشكل مواقفها وأفكارها ويوجه مسيرتها فى المستقبل ... ولأن هؤلاء سيكونون يوما أصحاب القرار فيجب أن نكون أمناء على عقولهم ومكوناتهم الفكرية والثقافية .

ولاينبغى أبدا أن نمتهن الحقيقة ونزيف الأشياء ونحن نكتب لهؤلاء حتى ولو كان ذلك تصفية لحسابات قديمة .

إننى أشفق كثيرا على عقول أبنائنا من كثرة الأوراق التى تراكمت فيها فلم يبق أحد فى مصر لم يكتب مذكراته .. ولم يبق قلم إلا

وسطر لنا بطولاته .. ولم تعد هناك ورقة واحدة بيضاء لكى يكتب التاريخ يوما عليها كلمته ويدلنا على حقيقة هذا الكم الهائل من تلال الورق التى غطت كل شىء فى حياتنا ، ابتداء بالماضى ومرورا على الحاضر وانتهاء بالمستقبل .

لقد أزعجنى وأزعج الكثيرين غيرى هذا الكم الكبير من المذكرات التى رواها بعض أصحاب القرار السابقين فى الفترة الأخيرة ... وبعض الحراس .. وبعض الطهاة .. وبعض الأطباء الخصوصيين ... وأكثر ما أزعجنا فيها تلك الاتهامات القاسية وهذا التجريح الضارى الذى وصل أحيانا إلى حد الاتهام بالعمالة لرجال قد نختلف حول أدوارهم ولكننا لاينبغى أن ننكر أبدا دورهم فى تاريخ هذا البلد .

«إن رفاق السلاح يجب أن يحترموا دائما أخلاق الفرسان» .

هيكل .. وذاكرة الأمة !

يصعب على الإنسان أن يكون محايداً مع كتابات الأستاذ محمد حسنين هيكل .. فإما أن تأخذ موقعك معه فى خندق واحد .. أو أن تنضم إلى صفوف المعارضين لفكره .. وفى الحالتين سواء كنت مع الأستاذ هيكل أم ضده فلا تملك إلا أن تحمل للرجل تقديراً عميقاً فهو كاتب لا يتعامل مع القشور .. ولا يحب السباحة فى المناطق الآمنة بقرب الشواطىء .. ولايتعامل مثل غيره مع ظواهر الأشياء .. ولهذا كانت كتاباته دائما تحمل قيمة كبيرة عند الناس اختلفوا معه أو اتفقوا عليه .

والأستاذ هيكل لايفرض عليك رأيا مسبقا .. ولكنه قادر على أن يحاصرك بالحجج والبراهين مستخدما كل الوسائل لإقناعك ابتداء بالتاريخ وانتهاء بالشعر .. لكنه فى كل الحالات لا يفصل الظواهر عن أسبابها .. ولا يضع النتائج بلا مقدماتها ..ولا يلقى أحكاما بلا أدلة ..

هذا هو الأستـاذ هيكل الذى عرفناه دائما سواء اتفقنا معه أم اختلفنا عليه .

وفى كتابه الأخير «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» رحلة من الرحلات الشاقة والمجهدة للعقل والوجدان معا ..

إن الرجل يأخذنا معه إلى قضية عمرنا .. قضية الصراع العربى الإسرائيلى وفلسطين والقدس .. وشهداء ٤٨ و٥٦ و٦٧ و٧٣ .. إنها بالنسبة لنا قضية عمر .. ومأساة جيل كان قدره أن يعيش حلما كبيرا .. وأن يواجه الموت حربا .. والألم والإحباط سلاما ..

هذه القضية أخذت نصف عمرنا أحلاما ... وأخذت النصف الآخر أوهاما ، وفى سراديب التاريخ وعلى امتداد قرنين من الزمان تقريبا يستعرض الأستاذ هيكل بداية المأساة ومراحل المحنة الأولى ..

والأستـاذ هيكل كاتب سياسى .. ولكنه عاشق من عشاق التاريخ .. وهو من هذا الطراز من الكتاب الكبار الذين يؤمنون بأن الحاضر مجرد حلقة فى سلسلة طويلة تمتد من الأمس إلى الغد ، وانه من الخطأ الجسيم أن نحاول فصل هذه الحلقات عن بعضها البعض ؛ لأن فى ذلك خيانة لذاكرة الأمة واستهتارا بمقوماتها .. فلكى نقرأ الغد يجب أن نكون على وعى كامل بدروس الأمس .

من أجل هذا يبدأ الأستاذ هيكل رحلتنا معه منذ حملة نابيلون على مصر ، وبداية ظهور الحلم اليهودى فى إقامة وطن .. وكيف كبر هذا الحلم حتى وصل إلى أعتاب القدس العتيقة من خلال منهج واضح ومدروس .. وقدم الأستاذ هيكل رحلة الحلم اليهودى عبر مراحله المختلفة .. كلمات على لسان نابليون .. قصائد شعر عند لورد بيرون .. وخطبة منبرية على لسان لامرتين .. ونظرة تاريخية فى كتابات توماس كلارك .. وبرامج واضحة عند دزرائيلى .. وهرتزل .. ومع هذا كله خريطة الأدوار التى سعت وراء هذا الحلم ومهدت له حتى يصبح حقيقة من السياسيين والمفكريين وأصحاب القرار .. وكيف توافرت لهذا الحلم الدراسة .. والمنهجية .. والإعداد .. والمثابرة ابتداء بتوزيع الأدوار وانتهاء بشراء الذمم .

وينتقل الأستاذ هيكل عبر محطات مختلفة يتوقف عندها حسب ضرورتها وأهميتها فى صياغة الأحداث .. فتقف مع نابليون .. ومحمد على .. وأسماعيل .. والاحتلال الإنجليزى لمصر .. ومعاناة الدولة العثمانية فى أخريات أيامها وتوزيع وليمة العالم العربى على مائدة سايكس بيكو ومشروعات الهجرة اليهودية إلى فلسطين .. ووعد بلفور.. وحرب فلسطين .. وتحقيق الحلم اليهودى فى إقامة وطن قومى لليهود على أرض فلسطين .

وفى هذا السياق يؤكد الأستاذ هيكل أن الفرق بين العرب واليهود. أن العالم العربى عبر مراحل تاريخه المختلفة كان يجرى جريا وراء التشرذم والشتات ، وأن اليهود كانوا يجمعون شواردهم من هذا الشتات .

وان إقامة دولة إسرائيل كان زواجا شرعيا فى المنطقة بين مصالح الغرب وإسرائيل فقد استوعب الغرب دروس الماضى تماما وأدرك ضرورة الفصل بين مصر والشام وأن دولة إسرائيل أفضل من يقوم بهذه المهمة..

وفى هذا السياق التاريخى حرص الأستاذ هيكل على التركيز الشديد على دور مصر ابتداء برأى نابليون واعتقاده بأن مصر أهم دولة فى العالم مروراً على محمد على ومشروعه الذى لم يتم .. وأن الأحداث دائما كانت تؤكد أن مصر هى مفتاح المنطقة بكل ما يعنيه ذلك من الأعباء والمسئوليات والدور .. وليس هذا تفاخراً بقدر ما هو مسئولية .

ويستعرض الأستاذ هيكل رحلات الهجرة اليهودية إلى فلسطين وكيف تدرجت من بضعة آلاف إلى أن وصلت للملايين .. وكيف رسخت وجودها وأكدت دورها ابتداء بشراء حصة الخديوى إسماعيل فى قناة السويس وانتهاء بدور العائلات اليهودية فى الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن .

وفى الوقت الذى استفادت فيه إسرائيل من دروسها مع التاريخ فى صياغة الحلم والوصول به إلى منطقة الواقع ، فإن العالم العربى كان ومازال لديه قدرة عجيبة على تكرار أخطائه وتضييع الفرص .

ومن التاريخ نصل إلى عدة قناعات يضعها أمامنا الأستاذ هيكل :

- ان وجود إسرائيل فى قلب العالم العربى هدف غربى قديم .. قد يكون هذا الهدف قد تزامن مع الحلم اليهودى ، ولكنه يرتبط فى الأساس بإستراتيجية غربية واعية بضرورة الفصل بين مصر والشام وباقى البلدان العربية .. وأن الغرب استوعب هذا الدرس جيداً ولن يقبل تكراره كما حدث مع صلاح الدين .. ومحمد على .. وجمال عبدالناصر.

- إن الغرب منذ البداية تحمل مسئولية حماية إسرائيل ، وليس ذلك حبا فى اليهود أو تعاطفا معهم ولكن لارتباط شديد فى المصالح والأهداف فى المنطقة يتساوى فى ذلك موقف الغرب من عشرات السنين وموقفه الآن ..

- فى الوقت الذى كسبت فيه إسرائيل الكثير .. كانت معظم الخسائر على العرب .. وذلك يرجع فى الأساس للفروق الشاسعة فى طريقة التفكير والتعامل مع الأحداث والقدرة على مواجهة المواقف والوعى بحقائق التاريخ .

ولأن للأستاذ هيكل موقفه الواضح من عملية السلام فهو لا يعول على نتائجها كثيرا تلك التى تصور البعض أنها نهاية المطاف .

لقد قدم الأستاذ هيكل بانوراما واسعة فى السياسة والتاريخ والتعامل مع الأحداث ، وكان راصداً أمينا لحركة التاريخ وصورة الواقع دون أن يفرض علينا رأيا أو وصاية .. لقد قدم الرجل ما عنده وتركنا نحدد مواقفنا حسب ما تمليه علينا ضمائرنا والتزاماتنا الوطنية والقومية..

ولم يترك الأستاذ هيكل تساؤلا مطروحا إلا وحاول الإجابة عنه بالرأى والتحليل والوثيقة .. وكان حاسما فى الدفاع عن وجهة نظره وموقفه من قضية السلام مع إسرائيل ، وليس ذلك عن رفض لفكرة السلام فى حد ذاتها ولكنه رفض لهذا السلام الذى يحاول أن يتجاهل كل الحقائق التاريخية والسياسية والإنسانية التى احتواها الصراع العربى الإسرائيلى طوال قرنين من الزمان ، والتى قدمها الأستاذ هيكل بكل الأمانة والموضوعية .

إن كتاب الأستاذ هيكل - وهو أخطر ما كتب - يمثل رحلة واعية مع دروس الماضى .. ووقفة صارمة مع الحاضر.. واستكشافا أمينا للغد.. وهو فى كل الحالات موقف يحسب للرجل فى وقت تداخلت فيه المواقف واختلطت الأدوار واختلت مقاييس الأشياء .

لقد كان هدف الأستاذ هيكل فى تأصيله لمأساة الصراع العربى الإسرائيلى ألا تفقد الأمة ذاكرتها الواعية وألا تسقط فريسة لهذا الواقع العربى المخيف .

وبهذا الكتاب يضيف الأستاذ هيكل إلى رصيده إنجازا جديداً حافلاً .. ويضيف للمكتبة العربية سجلا عميقا وجاداً لقصة الصراع العربى الإسرائيلى .. وقبل هذا كله فإن الرجل يلقى بطوق نجاة لأجيال جديدة من حقها أن تعرف الحقيقة وسط هذا الطوفان .

وتأتى خطورة هذا الكتاب من أنه يجىء فى فترة عصيبة تشهد فيها المنطقة العربية محاولات ضارية لتغييب عقل الأمة وتشويه ذاكرتها .. وقد حاول الأستاذ هيكل فى كتابه أن يتصدى لذلك كله بضمير الإنسان ومسئولية الكاتب وأمانة الموقف .

نزار قبانى وأحزان الشعراء

لم أكن أتصور أن يأتى علينا زمان نفقأ فيه عيوننا بأيدينا .. ونغتال بلابلنا رغم أنها آخر ما بقى على أشجارنا الحزينة فى الزمن البخيل . وأن نطلق السهام على صدور عشقت أوطانها حتى الثمالة .. وعاشت جراحها جرحا جرحا .. وحملت أمانيها أملا أملا .. وغنت للعشق أجمل أغانيه .. وغنت للوطن حين كان جديرا بالغناء .. وبكت على أطلاله حينما عصفت به رياح اليأس والفرقة .

لم أكن أتصور أن تنهال كل هذه السهام على صدر شاعرنا الكبير نزار قبانى وهو يعيش خريف عمره بعيدا عن وطنه الجريح .. وهو الذى لم يحمل فى حقائب سفره وهو يودع هذا الوطن منذ سنوات بعيدة غير صورة زوجته ورفيقة رحلته وهو يقف حزينا ينتظر خروج جثتها من تحت أنقاض أطلال بيروت الجريحة ..

وبقى جثمان الزوجة القتيلة فى خيال الشاعر المطارد من كل شىء .

وقبلها كفن نزار قباني وحيده طالب الطب بين ضلوعه في جنازة حزن صامت ..

وبعدها انهارت أحلام كثيرة في رحلة الشاعر مع نفسه .. ووطنه وأمته ..

وامتدت رحلة الجراح لتشمل البيت .. والوطن .. والأمة ..

بيت حزين بعد فراق أهله ..

ووطن مكسور ومهزوم بأيدي أبنائه ..

وأمة تبحث عن مخلص .. ولا تجد الخلاص .

ماذا ننتظر من الشاعر وسط هذه الأطلال .. وبين كل هذه الخرائب .. هل ننتظر منه أن يكون من حملة المباخر .. والمغنين في حضرة السلاطين ؟ أم ننتظر منه أن يكون بوقا من أبواق الزيف والدجل الرخيص .. ام ننتظر منه أن يقف على كل باب يوما يمجد هذا ويمدح ذاك .. ؟

لم يكن نزار قباني يوما من حملة المباخر .. ولم يقف أبدا على أعتاب السلاطين .

فهل كان ذنب الرجل أنه وضع أصبعه في جرح أهملته الشعوب حتى أصابه العفن وملأت روائحه الكريهة كل مكان ؟

أم أن ذنب نزار قباني أنه صاح بأعلى صوته والسفينة تغرق قائلا: إن الموت يطاردنا ..

أم أن ذنب نزار قباني أنه حاول أن يطارد أزمنة القبح العربي ابتداء بصناعة القرار وانتهاء بمزادات الأفكار ..

لقد كنت حزينا وأنا أتابع هذه الحملة الشرسة ضد نزار قباني الشاعر والإنسان ..

ومازلت أذكر سنوات شبابنا الأولى حينما كانت قصائد نزار قباني تحلق في خيالنا ونعيش معها أجمل سنوات العمر ..

عشنا مع قصائد نزار قباني سنوات عشقنا الأولى .. وعشنا معه سنوات أحلامنا الأولى .. ثم عشنا معه انكساراتنا الأولى ..

فماذا تغير في نزار الآن حتى تشتعل الدنيا حوله وهو يعيش خريف عمره ..

ما الذي تغير في مواقف نزار قباني حتى نعلن الحرب عليه ..

إذا كان رافضا لأزمنة القبح العربي الآن .. فقد ظل عمره كله رافضا لهذا القبح .

إذا كان مكسورا في أحلامه .. فمن منا لم تنكسر أحلامه أمام هذا الواقع العربي الكئيب ..

إذا كان حزينا لما وصل إليه حال أمة العرب .. فمن منا لم يدمن أحزانه حتى الثمالة ..

إن نزار قباني لم يكن فقط صادقا مع نفسه وهو يكتب آخر مراثيه لهذه الأمة ، ولكنه كان صادقا معنا أيضا ..

ما الذى أغضبنا فى شعر نزار ..

هل لأنه قال : متى يعلنون وفاة العرب .. ومن منا لم يشيع الجنازة .. ويبكى بكاء مرا على روح الفقيد .

هل لأنه قال : إن العرب يترنحون أمام ضربات زمان لا يرحم ..

فوالله إنهم يترنحون وما هم بسكارى .. ولكن عذاب الواقع المر أكثر من شديد ..

هل لأن نزار قبانى ينعى للعالم العربى أزمنة حلمنا فيها بوحدة القرار والمصير والإرادة .. إننا جميعا نعلم أنها أطلال شعارات براقة .. ماتت ومات معها حلم كبير ..

والأغرب من هذا كله أن يقول البعض أن نزار قبانى ليس شاعرا.. ولم أكن أتصور أن للشعر صكا يجب أن يحصل عليه الشاعر حتى ولو تجاوز عمره السبعين ، منها خمسون عاما مع الشعر ..

إذا كان فى أمة العرب إنسان ولد لكى يكون شاعرا فهو نزار قبانى ..

بل إن نزار قبانى أحد مفاخر هذه الأمة فى زمن لم يعد لدينا ما نفخر به .

من حقنا أن نختلف مع نزار قبانى وأن نرفض مواقفه ولكن ليس من حق أحد أن يسلب منه شاعريته وقيمته ودوره ..

لقد عرفت نزار قبانى شاعرا وصديقا ..

عرفته شاعرا وأحببت شعره .. واتفقت معه أحيانا .. واختلفت معه أحيانا .. ولكنه بقى عندى حديقة واسعة من الأشجار الشامخة التى أسعدتنا زمنا بربيعها وظلالها وثمارها .. وأغنيات الخريف فيها .

وعرفت نزار قبانى صديقا مازال - وقد تجاوز السبعين من العمر - فيه براءة الأطفال وشقاوتهم .. وحكمة الكبار وكثير من جنونهم ..

وهو فى كل حالاته الإنسان الذى خلق لكى يكون شاعرا .

لقد كنت حزينا أن تتجه كل هذه السهام الطائشة إلى قلب نزار قبانى .. ولكن هذه السهام تعكس حالة التردى والانهيار التى وصلت إليها أحوال الثقافة العربية .

إن المثقفين العرب تركوا معاركهم الحقيقية منذ زمان بعيد وأجادوا لعبة التصفيات .. فكانت هناك التصفيات الجسدية . والتصفيات المعنوية .. وأخيرا كانت تصفيات الشعراء .

لا تسألوا الشاعر لماذا كتب هذه القصيدة فالشاعر الحقيقى لا يكتب بقلمه .. ولكنه يكتب بدمه .

ولا تسألوا البلبل الحزين لماذا تبكى على أطلال عشك الذى كان يوما جميلا .. لأن البلابل لا تحب القبح وترفض أن تعيش فيه ..ولا تسألوا أشجار النخيل لماذا أصبح تمرها مرا .. واسألوا الزمن الذى جعل التمر مرا ..

ومصر هى التى احتضنت شعر نزار قبانى .. وهى التى حملته فى عينها فى صوت أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم حافظ ونجاة الصغيرة .

إن نزار قبانى نخلة عريقة عاشت على ضفاف نيلنا العظيم ، ونحن شعب لا يفرط فى نيله ونخيله وبلابله .

ومصر هى التى احتضنت مع نزار قبانى كل شعراء العربية الكبار وكان هذا ومازال قدرها ودورها ومسئوليتها ..

عاش فيها مطران شاعر القطرين ..

وعاش فيها إيليا أبو ماضى .. شاعر لبنان الكبير ..

ونشأ فيها محمد الفيتورى شاعر السودان الشقيق ..

وانطلق منها أبو القاسم الشابى شاعر تونس المتألق ..

وعاش فيها البياتى شاعر العراق أطول سنوات منفاه ..

فإذا كان نزار قبانى حزينا على حال أمته .. فكلنا حزانى ..

قراءة ساذجة للتاريخ ! !

من الممكن أن يختلف المؤرخون وعشاق التاريخ فى تفسير أحداثه وإعادة قراءة سطوره .. ولكن ليس من حق أحد تزييف ذاكرة الأمة والاستخفاف بماضيها . وليس من المعقول فى زحمة التغييب التى نشهدها الآن أن يصبح المستعمر رسول حضارة وأن يصير المحتل مشعل ثقافة ، ويصير الغزاة أبطالا على صفحات تاريخنا العريق .

أقول ذلك بمناسبة اختيار حملة نابليون على مصر لتكون مناسبة للاحتفاء بالعلاقات الثقافية والفكرية بين مصر وفرنسا ، وذلك على أساس أن حملة نابليون كانت حملة حضارية ..

ويحاول هذا الرأى الساذج والمغالط استبدال وجه نابليون العسكرى وأهداف حملته التوسعية لإقامة امبراطورية فى الشرق إلى وجه ثقافى فكرى تمثل فى المطبعة التى حملها والاكتشافات الأثرية التى

قام بها علماء الحملة الفرنسية وخاصة كتاب وصف مصر واكتشاف حجر رشيد .

ولاشك أن نابليون قائد عسكرى عظيم .. وهو من رموز فرنسا التاريخية التى يعتز بها الشعب الفرنسى .. ولكن موقع نابليون فى تاريخ فرنسا شىء .. وموقعه فى تاريخ مصر شىء آخر ..

لقد جاء نابليون إلى مصر غازيا .. ولم يكن حاملا لمشاعل فكر وثقافة وحضارة كما يحاول البعض أن يغالط حقائق التاريخ ..

لم تكن حملة نابليون تحمل بين بوارجها وأساطيلها رغبة فى تحرير الشعب المصرى وتنويره .. بل كان هدفها احتلال مصر ضمن مخطط عالمى واسع وصراع كبير بين فرنسا وإنجلترا لبسط الهيمنة الغربية على الشرق وتوزيع الغنيمة بين القوى العظمى فى ذلك الوقت .

هذا هو الهدف من الحملة الفرنسية كما درسناه يوما فى حصص التاريخ ونحن صغار .. فهل أصبح من المطلوب الآن أن يتحول نابليون بقدرة قادر إلى رمز من رموز الحضارة والمعرفة فى تاريخ مصر .. وإذا كان ذلك شيئا مطلوبا الآن مع نابليون فماذا سنفعل مع محمد كريم بطل المقاومة الشعبية فى الإسكندرية الذى قتله الفرنسيون رميا بالرصاص.. وماذا عن المعارك التى دارت فى الإسكندرية .. وشبراخيت .. والأهرامات .. وصعيد مصر .. وماذا عن المواجهة

التاريخية بين القائد الإنجليزى نلسون ونابليون فى أبى قير .. هذه الأحداث جميعها لم تكن أحداثا ثقافية وفكرية ولكنها تدخل فى التاريخ العسكرى والسياسى ولا علاقة لها بالتاريخ الثقافى والفكرى الذى يحاول البعض الآن فرضه علينا حتى يتحول نابليون إلى منارة ثقافية فى تاريخ مصر .

إن أحداث التاريخ تؤكد أن نابليون جاء إلى مصر غازيا وأن حملته كانت تهدف احتلال مصر وأنها فتحت عيون إنجلترا منذ هذا التاريخ على أهمية مصر حتى احتلتها فى عام ١٨٨٢ ..

ولاشك أن هذا خطأ فى تفسير أحداث التاريخ ، بل هى محاولة لتزييف حقائقة الثابتة .

ولو أننا أخذنا بهذا السياق الجديد فى إعادة تفسير التاريخ فسوف يلقى بنا ذلك فى متاهات كثيرة ، وهناك أشخاص بيننا الآن جاهزون ومستعدون للقيام بهذه المهمة ..

يمكن أن نحتفل بذكرى احتلال إنجلترا لمصر على أساس أن الإخوة الإنجليز احتلوا مصر سبعين عاما لكى يتعلم بعض أبناء مصر اللغة الإنجليزية ونلغى أسماء عرابى والبارودى والنديم من صفحات تاريخنا الحديث ..

يمكن أن نحتفل بذكرى إقامة دولة إسرائيل فى فلسطين على أساس أن إسرائيل كانت أول قلاع الديمقراطية فى هذه المنطقة من العالم وأنها جاءت كمنارة حضارية وسط هذه البقعة المظلمة من العالم .

يمكن أن نحتفل بنكسة ٦٧ على أساس أنها كانت بداية إعادة ترتيب المواقف فى المنطقة العربية لتحتل إسرائيل مكانتها وتمارس تأثيرها الحضارى وإشعاعها الفكرى .

يمكن أن نغالط - إذا أردنا - فى حقائق التاريخ ، فيصبح اللورد كرومر بطلا شعبيا عظيما وشهداء دنشواى عملاء مأجورين .. ويصبح رابين بطلا للسلام وعبدالمنعم رياض جنرالا مندفعا مات وسط جنوده .. ويصبح مراد الذى حارب نابليون تحت راية مصر مجرد مملوك هارب .

من الممكن أن يكون إيدن بطلا قوميا عند الإنجليز لأنه خاض حرب السويس .. ولكنه سيظل عند المصريين وجها قبيحا لمؤامرة خسيسة .. ويبقى عبدالناصر بطلا قوميا فى وجدان مصر العربية .

إن بعض الألمان مازالوا يرون فى هتلر بطلا من أبطال ألمانيا .. ولكن لا يمكن أن يرى .. الفرنسيون فى هتلر هذه الصورة وقد اقتحم يوما عاصمة النور وأطاح بكل مقدساتها .

من هنا تأتى قدسية التعامل مع التاريخ .. لأن لكل شعب رموزه .. وقد تختلف رؤية الشعوب لرمز واحد فى مسيرة الأحداث ..

فقد يكون الرمز عند شعبه بطلا .. وفى نظر شعب آخر هو قاتل ومغتصب وجلاد .

والرموز نفسها لا يمكن أن تتساوى .. هل تتساوى مواقف الرئيس ميتران والرئيس شيراك من القضايا العربية مع موقف «جى موليه» فى حرب السويس .. لهذا يجب أن نحفظ للتاريخ مصداقيته ونحفظ للرجال نبل مواقفهم .

إننا مع الرغبة الطيبة فى الاحتفاء بالعلاقات المصرية الفرنسية وتاريخها الثقافى الحافل ..

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل دور فرنسا ومثقفيها ومبدعيها الكبار فى تاريخ الثقافات العالمية عبرعصورها المختلفة .. لقد حملت للعالم بشائر الحرية فى ثورتها العريقة .. وحملت للفكر البشرى أفكارا عظيمة فى إبداعات كتابها ومفكريها .. ولا يمكن أن نتجاهل دور هؤلاء فى إيقاظ العقل والوجدان العربى ابتداء من رفاعة الطهطاوى وانتهاء بطه حسين .

ولكن التقدير يجب أن يكون فى مكانه .. والحفاوة يجب أن تكون لمن يستحقها .. ومن الخطأ أن نصاب بحالة من البلاهة وعدم الإدراك ونتصور فجأة أن نابليون جاء إلى مصر مبشرا بأفكار الثورة الفرنسية ودعوتها للحرية وحقوق الإنسان وأنه جاء ليفتح عيون

المصريين على الثقافة والفكروالمعرفة .. هذه مغالطة تاريخية صارخة وساذجة ومرفوضة ، ولا يجب الخلط أبدا بين تاريخ مضى وأصبح حقائق ثابتة وتاريخ معاصر مازلنا نعيشه لأن لكل مرحلة ظروفها ورموزها .

إن التقدير الحقيقى لنابليون أن نضعه فى مكانه الصحيح دون تجاوز أو تزييف ؛ لأنه جزء من الماضى ولاينبغى أن يؤثر الحاضر فى موقفنا منه سلبا أو إيجابا ..

كان بطلا عظيما فى تاريخ فرنسا .. هذه حقيقة .

كان قائدا عسكريا كبيرا وقديرا . هذه أيضا حقيقة .

أما أنه جاء إلى مصر حاملامشعل الثقافة والحضارة والفكر للشعب المصرى فهذا دجل رخيص .

ولهذا يجب أن نبحث عن مناسبة أخرى غير حملة نابليون لتكون مناسبة للاحتفاء بالعلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا ..

لنحتفل بذكرى الطهطاوى ، وقد كان واحدا من أبرز المصريين وأكثرهم تأثرا بالثقافة الفرنسية ولعب دورا رائدا فى تنوير العقل المصرى ..

لنحتفل ببعثات محمد على إلى فرنسا والتى توالى تلاميذها ومريدوها بعد ذلك ابتداء بعلى مبارك وانتهاء بالخديوى إسماعيل أكبر

عشاق فرنسا فى الشرق .. لنحتفل بمصطفى كامل ورحلته النضالية ضد الاحتلال الإنجليزى والتى خاضها فى باريس قبل الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا .

لنحتفل بعميد الأدب العربى طه حسين .. وقد كان واحدا من أبرز وأكبر المثقفين المصريين الذين عايشوا الثقافة الفرنسية وقدموا نموذجا رائعا للتفاعل الواعى الحى بين الثقافات العالمية .

ما أكثر الحلقات المتصلة بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية التى يمكن الاحتفاء بها ، أما اختيار الحملة الفرنسية كنموذج لهذه العلاقات فهو تفسيرخاطئ للتاريخ واستهانة بحقائقه الثابتة .. وقبل هذا كله هو محاولة ساذجة لقراءة أحداثه ..

هل جاء على المصريين زمان يحتفلون فيه بذكرى احتلال أراضيهم .. من يعش ير ..

تناقضات !

تناقضات كثيرة تجتاح الشارع المصرى الآن .. وقد تداخلت فى بعضها البعض فأصبحت ترى فيها أكثرمن وجه .. وتسمع فيها أكثر من صوت .. وترصد فيها أكثر من شريك أو مسئول ..

والتناقضات تعنى أن هناك نوعا من الخلل أصاب الثوابت فى حياة الناس من قيم .. وأخلاق .. وسلوك .. وفكر ..

وكان من ظواهر ذلك كله أن ترى الهرم مقلوبا .. وأن ترى القيم مهتزة .. وأن تجد السلوك مختلا .. وأن يصبح الفكر بلا موازين دقيقة.. وهنا يفقد الإنسان قدرته على التعامل المحسوب مع الحياة أشياء وبشرا . ولقد زادت مساحات التناقضات فى حياتنا وأصبحت لها أشكال كثيرة ابتداء بالتناقضات الاجتماعية الحادة التى أخلت تماما بالسياق العام للمجتمع حركة وسلوكا واندفاعا للأمام وانتهاء بالتناقضات الفكرية التى قلبت موازين الثوابت من الفكر ، وأمام هذا اجتاحت

حياتنا اشكال وألوان جديدة من الأفكار والفنون التى خرجت تماما على السياق العام للمجتمع المصرى وتراثه الحضارى والتاريخى .

ولهذا لم يكن غريبا أمام هذه التناقضات أن تصبح الطبقة الوسطى من المثقفين والمهنيين فى قاع المجتمع .. بينما تطفو على السطح طبقة جديدة بلا أصول ولا ثوابت ، وتفرض نفسها على المجتمع فرضا .. فى سلوكياتها .. وفنونها .. واحتياجاتها ، وتدفع بالمجتمع كله إلى أى اتجاه ترغب فيه .

ولم يكن غريبا فى هذه التناقضات الحادة التى شهدتها مصر أن تفقد القيم الحقيقية دورها وقيمتها .. وأن تتحول الرموز العظيمة إلى مجموعة من الهياكل الأثرية التى لا تتجاوز فى تأثيرها حدود الذكرى ، وإذا كان من الممكن على الإنسان الفرد أن يعيش على الذكرى فهى لا يمكن أن تكون زادا لمسيرة مجتمع أوحركة أمة ..

وما أكثر الشواهد والدلائل على ما أقول :

- مات جمال حمدان محترقا فى شقته المتواضعة فى المنيل بينما دفع أحد الأندية مليون جنيه ثمنا للاعب كرة ..

- رفع مجلس الشعب الموقر حصانته عن بعض الأعضاء بقرار من النائب العام لأنهم حصلوا على قروض بالملايين من أحد البنوك الحكومية بدون ضمانات واستخدموها فى مضاربات عقارية بالملايين أيضا . وهذا

البرلمان هو نفسه الذى رفع الحصانة عن بعض أعضائه فى بداية دورته بسبب تجارة المخدرات ، وينهيها الآن بأعضاء آخرين استباحوا مال الشعب فى أحد البنوك ..

فى هذا البرلمان وقف العقاد تحت قبته يوما وهو يصيح : إن هذا الشعب قادر على أن يطيح بأكبر رأس فيه وهو رأس الملك .. وذهب الملك .. وبقى العقاد .

وهو نفس البرلمان الذى أصدر فى أواخر أيامه قانون الصحافة المشئوم ليسكت الأقلام التى تحاول أن تطارد العابثين بأموال هذا الشعب، فهل هناك تناقضات أكثرمن هذا .

- فى الوقت الذى يعطى فيه أحد البنوك لأعضاء مجلس الشعب قروضا بلا ضمانات تقدم الحكومة لضحايا الريان عرضا بشراء أراضى الصحراء «بالمتر» ، وانتهى بهم الحال وبأموالهم إلى هذه المساحات الشاسعة من الصحارى المهجورة بعد عشر سنوات كاملة من البحث والمعاناة عن الحق الضائع ..وربما اختارت الحكومة الصحراء لكى تكون المقر الأخير لضحايا الريان حيث يسعهم الرحمن هناك برحمته بعد أن بخلنا عليهم بها .

- أن يجلس نجوم الفن الراقى فى بيوتهم يعانون الوحدة والحزن والألم وقد كانوا يوما سادة الفن الراقى والكلمة الرفيعة والمواقف الكريمة

بينما يتصدر لافتات المسرحيات والأفلام الراقصون والمهرجون والأدعياء وتحول المسرح المصرى إلى كباريهات يرقص فيها الممثلون من الرجال .. والممثلات من الراقصات ..

يكفى أن تشاهد فقط إعلانات المسرحيات على شاشة التليفزيون لتشعر بحالة من الغثيان فليس هذا هو المسرح .. وليس هذا هو الفن .. وليست والله هى مصر .

- أن تثور ضجة واسعة حول احتكار القنوات الفضائية العربية لأصوات المطربين المصريين .. ولو كنت مسئولا لأرسلت إلى هذه القنوات خطابات شكر وعرفان لأنها أراحت الشعب المصرى المسكين من هذه الجرعات المكثفة من الرقص والتهريج والصخب المجنون .

ولو كانت هناك موازين عادلة لدفع هؤلاء المطربون أموالا طائلة لكى تسمح لهم هذه القنوات بالظهور على شاشاتها ..

إنها صفقة خاسرة بكل المقاييس ولا ينبغى أن ندافع عنها ..

هى صفقة خاسرة على المستوى الفنى .. لأن هذا التهريج الغنائى لا يمكن أن يكون فنا ..

وهى صفقة خاسرة على المستوى الحضارى إذا قارناها بتاريخ الأغنية المصرية فى عصرها الذهبى ورموزها العظيمة التى صاغت الوجدان العربى وحركت خياله وإلهبت مشاعره .

وهى صفقة خاسرة على المستوى الجمالى .. لأننا كنا دائما نسعى للجمال وننشره ، ومن المؤسف جدا أن نروج القبح وندافع عنه ..

والشيء المؤلم أن هناك من يقول إنه وراء ظهور هذه الأصوات وسبب انتشارها ..وهذا الاعتراف يدعو للمساءلة .. لأن مثل هذا الفن يجب أن يخضع لعقوبات قانونية رادعة .

- أن نحتفل بعيد وفاء النيل .. وفى نفس الوقت يصدر قرار بمنع الارتفاعات الشاهقة على ضفاف النهر الخالد .. وللأسف الشديد أن القرار جاء متأخرا عشرين عاما كاملة .. وأن الاحتفال بوفاء النيل جاء بعد انتهاء شواطئ النيل ، فقد تم توزيعها قطعة قطعة ،، وشبرا شبرا بين النوادى وناطحات السحاب وأصحاب النفوذ وعلى المتضرر أن يختار أى صخرة أو شجرة يتيمة على شاطئ النهر الحزين ويبكى عليها كما يحب وكما يريد .

هذه بعض نماذج التناقضات التى ملأت حياتنا ، وهى ليست مقصورة على أصحاب القرار .. وليست حكرا على الحكومة ، ولكنها أصبحت مشاعا بين الجميع شعبا وحكومة .

وأمام هذا لم يكن غريبا أن تجتاح الناس حالة من الجشع الشديد والرغبة فى امتلاك الأشياء ..وأن تجتاح الحكومة حالة من الرغبة فى بيع أى شيء .. فالدولة تبيع الأراضى والأصول : السياحة تبيع

الفنادق.. والمحافظات تبيع الجراجات .. حتى وصل الأمر إلى بيع صحراء الواحات البعيدة بالمتر بينما المليارات تتدفق على الساحل الشمالى من أجل عطلة سنوية أو أسبوعية .. والشباب بالملايين بلا عمل ولا مستقبل .. ولا حلم .

وأمام الرغبة فى امتلاك الأشياء اتسع حجم الانانية فى نفوس الناس .. وأصبح كل إنسان لا يرى غير نفسه وتحول المجتمع إلى سوق واسعة للبيع بلا ضوابط ولا أهداف واضحة .

إن الأنانية هى أخطر أمراض الشارع المصرى الآن ..

ازداد الأغنياء مالا ..ولم يعرفوا الرحمة ..

واتسعت مساحات الفقر .. ومعها تراجعت مساحات القناعة واندفع الناس فى طريق يتسابقون وكل واحد لا يرى إلا نفسه ، وكانت النتيجة هى كل ما نرى الآن وما نسمع ابتداء بالجرائم وانتهاء بموت الضمائر ..

ولهذا كان من السهل أن تفقد الأشياء تناسقها .. وأن يفقد الأفراد تراحمهم .. وأن يفقد المجتمع تماسكه القديم .

هذه التناقضات مسئوليتنا جميعا .

مسئولية الأب الذى سافر يجمع المال وخسر الأسرة وخسرنا معه نخبة من أفضل خبراتنا ..

مسئولية المدرس الذى تراجع ضميره ولم يعد معلما بل أصبح يمارس تجارة رخيصة اسمها الدروس الخصوصية ..

مسئولية الإعلام حين بهرته الظواهر وتخلى عن دوره فى البناء العقلى والوجدانى السليم ..

مسئولية فن راقص علم الأبناء أن الرقص فى كل أشكاله هو أقرب الطرق للنجاح سواء كان رقصا غنائيا .. أو رقصا مسرحيا أو رقصا على الحبال ..

مسئولية أفلام روجت المخدرات وعلمت الشباب أسوأ العادات وأرذلها من أجل حفنة دولارات .

مسئولية أسرة نسيت كل شىء وباعت كل شىء من أجل شبح اجتاح حياتنا اسمه المال ..

مسئولية دولة كل شىء فيها يمارس التجارة .

إن الأسباب واضحة .. والحلول أيضا واضحة ..

ولكن من منا لديه شجاعة المواجهة !!

عشـوائيـات !

ليست الطبيعة وحدها هى التى تطلق الزلازل والبراكين .. حيث يتغير وجه الأرض وملامح الأشياء ، ولكن بعض الأحداث تشبه إلى حد كبير الزلازل الكونية التى يتوقف الإنسان أمامها حائراً متسائلاً مندهشا .. وسوف يؤرخ للصحافة المصرية يوما قبل زلزال تعديلات قانون الصحافة وما جاء بعده .. لقد اهتزت أشياء كثيرة بعد تعديلات قانون الصحافة التى أقرها مجلس الشعب الموقر فى ساعات قليلة فى آخر جلساته رغم أنها تمس أخطر وأعمق قضايا الحرية والديمقراطية فى مصر والتى كانت تمثل الحصان الرابح الذى نتباهى به ونزهو أمام دول المنطقة .

إن ما حدث لقانون الصحافة زلزال بكل المقاييس ..

هناك مصطلحات جديدة أضافها القانون الجديد عن الإشاعات .. والازدراء وإثارة الفزع بين الناس .. وازدراء مؤسسات الدولة والقائمين عليها وسوء النوايا .. والآراء المغرضة .. وهذه جميعها كلمات مطاطية

المساحة عشوائية الاختيار .. وهى تشبه إلى حد كبير ألاعيب السيرك التى يجب أن يقفز عليها اللاعب بين الحبال والأسلاك حتى لا يسقط على رقبته ..

وطبقاً لمقاييس القانون الجديد يستطيع أى شرطى أن يخرج كل يوم بمائة قضية قذف وسب وتشهير وازدراء من أى صحيفة قومية ومثلها عشر مرات من أى صحيفة معارضة ابتداء بالصفحة الأولى وانتهاء بصفحة الوفيات .

فلو أن إحدى الصحف نشرت نعيا ولم تبرز فيه اسم مسئول كبير بالبنط العريض فهذا ازدراء له حتى ولو كان النعى منشورا بالمجان ..

ولو أن مسئولا أجرى حواراً مع صحيفة ونشرته وكذبه المسئول فى اليوم التالى .. فالمسئول صادق .. والصحيفة كاذبة وعلى المحرر أن يدخل السجن أو يدفع الغرامة .

إن هذا القانون يشبه تلك العشوائيات الكثيرة التى تظهر فى حياتنا من وقت لآخر .

والعشوائيات تعنى وجود خلل فى مكونات الأشياء .. ولهذا يستخدمها علماء الإحصاء فيما يسمى بالعينات العشوائية .. وهى تمثل تلك النماذج التى لا رابط بينها ولا انسجام ولا تناغم ..

والعشوائيات فى المبانى تعنى عدم انسجام الرؤية الجمالية تخطيطا وإنشاء وذوقا ..

والعشوائيات فى القوانين تعنى إصدار قانون خطير فى ساعة زمان واحدة ..

والعشوائيات فى السلوك تعنى خللا فى الشخصية وتخبطا فى الإدراك وضياعا فى الهوية وعدم قدرة على تحمل المسئولية .

والعشوائيات فى الفكر تعنى عدم وضوح الرؤى واختلال موازين القيم والبشر والأشياء .

وإذا كانت عشوائيات البناء قد خلقت أحياء كاملة لا حل لها غير الهدم والإزالة .. وعشوائيات السلوك قد تركت لنا خللا فى الناس لاحل له غير إعادة التكوين .. فإن عشوائيات الفكر والثقافة خلقت أجيالا بلا قضية .

وهناك من الأدلة ما يثبت صحة ما أقول ..

فالعشوائيات فى البناء خلقت عشرات الأحياء اللقيطة التى تحولت إلى أوكار للضياع والتطرف ابتداء بحى إمبابة وانتهاء بعشوائيات المعادى ومصر الجديدة والمقطم والهرم ومئات الأحياء فى كل محافظات مصر .

والعشوائيات فى السلوك هى تلك الصورة القبيحة التى وصل إليها الشارع المصرى فى سلوكه .. ومفردات لغته .. وتصرفاته العامة والخاصة .. ابتداء بتفشى الأنانية .. وحب الذات وانتهاء بالجريمة والعنف وعدم الإحساس بالمسئولية .

والعشوائيات فى الفكر والثقافة هى التى وصلت بالمثقفين عندنا إلى أسوأ حالاتهم حيث تناقلتهم الأوكار الثقافية والإيدلوجية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وبالعكس .. ومن كانوا بالأمس تقدميين يرفعون الرايات الحمراء أصبحوا الآن يرقصون فى محراب العم سام .

وإذا كان من السهل مواجهة عشوائيات البناء بالهدم .. وعشوائيات السلوك بالإرشاد والتوجيه .. فإن مواجهة عشوائيات الفكر هى أصعب المهام وأخطرها ..

وما أكثر العشوائيات الفكرية فى حياتنا ..

- إننى لا أزدرى الجامعات المصرية حين أقول أن لدينا الآن عشرات الجامعات الإقليمية التى قامت بلا تخطيط أو تنظيم أو دراسة وأن معظمها جامعات بلا أساتذة .. وبلا برامج وأنها أصبحت تمثل عبئا مخيفا على العملية التعليمية فى مصر ، وأنها تشبه إلى حد كبير الأحياء العشوائية فى القاهرة .

- وأنا لا أزدرى التليفزيون المصرى إذا قلت ان لدينا فى كل محافظة قناة تليفزيونية وأن الهدف نبيل والغاية سامية ولكن هذه القنوات تقدم نفس المسلسلات ونفس الأغانى .. وأن الشعب المصرى مفروض عليه الآن أن يسمع الأغنية الهابطة خمس مرات كل يوم .. وأن هذا الإلحاح المقصود أفسد أذواق أجيال كاملة .

- وأنا لست مغرضا إذا قلت أننى تمنيت بينى وبين نفسى لو أن د. فتحى سرور رئيس مجلس الشعب ود. عاطف صدقى رئيس الوزراء اعتذرا عن قبول الترشيح لجائزة الدولة التقديرية من البداية .. وليس ذلك تشكيكا فى مكانتهما العلمية ، ولكن احتراما للمنصب .. وتقديراً لقدسية الجائزة .

إننا يجب أن نفرق بين انتخابات الحزب الوطنى والتصويت لجوائز الدولة .

- وأنا لا أزدرى أحداً إذا قلت أننى شعرت بتعاسة رهيبة وأنا أسمع المتحدثين أمام رئيس الدولة فى عيد الإعلاميين ومعظمهم يخطئون فى أبسط قواعد اللغة العربية ومنهم المسئولون والكتاب والإذاعيون والصحفيون .. فكيف يتحمل هؤلاء مسئولية ثقافة شعب وفكر أمة .. ومستقبل أجيال ..

- وأنا لا أنشر الشائعات إذا قلت أن أجهزة الدولة تتبنى الآن إنتاج الفن الهابط وتروجه بين الناس .. فالأغانى الهابطة فى التليفزيون.. والمسرحيات الهابطة على مسارح الدولة .. والأفلام الهابطة فى دور السينما التى تملكها الدولة .. ثم بعد ذلك نتحسر على العصر الذهبى للفن المصرى رغم أننا قتلنا القتيل ومشينا فى جنازته .

ولا أدرى لماذا تتساقط صروح الفن المصرى واحداً بعد الآخر .. هل هى مؤامرة على وجدان شعب .. أم أن الهدف أن يقال أن هذه الأجهزة غير قادرة على تقديم الفن الجيد وأنها سقطت فى دوامات الإسفاف ويجب التخلص منها .. والبيع هو الحل الوحيد .

هذه بعض الخواطر العشوائية التى طافت فى رأسى وأنا أقرأ التعديلات الجديدة فى قانون الصحافة وهو آخر العشوائيات فى الشارع المصرى ..

ومازال مسلسل العشوائيات فى حياتنا يحتل كل يوم مساحات جديدة فى الأرض .. والفكر .. والقوانين .. والسلوكيات .. وقانا الله وإياكم القانون الجديد للصحافة .

الجامعات الخاصة .. والمستقبل الغامض

فى السنوات الأولى من هذا القرن تبرعت الأميرة فاطمة ابنة الخديو إسماعيل بكل مجوهراتها ومعها أربعمائة فدان وأنشأت جامعة القاهرة قلعة الثقافة العربية والمنارة التى حملت للعقل العربى أجمل وأعمق وأرفع مراحل نموه وتطوره وابداعه الخلاق ..

وفى نهاية القرن نفسه وافق مجلس الوزراء أخيرا على إنشاء أربع جامعات خاصة «بمصاريف» ، وسوف تبدأ الدراسة فى هذه الجامعات مع العام الدراسى الجديد رغم أنها لم تستكمل مبانيها .. وبعضها بدون مبان .. ولم تحدد الدولة موقفها من الشهادات العلمية التى ستمنحها هذه الجامعات .. ولا الرسوم التى يدفعها الطلبة ، وهى فيما يبدو تجربة تحمل الكثير من جوانب الغموض ..

وما بين جامعة القاهرة العريقة والجامعات الخاصة الجديدة تفصل سنوات طويلة .. وطويلة جدا تغيرت فيها أشياء وسلوكيات وبشر ..

ولكن الفرق الأساسى الذى أثار خيالى وطاف فى رأسى .. هو مشهد الأميرة التى تخلع حليها ومجوهراتها وتهديها للحكومة المصرية لتقيم بها جامعة .. ومشهد رجال الأعمال المصريين وهم يطلبون إنشاء جامعات خاصة يتعلم فيها ابناء القادرين حتى ولو كانوا من الفاشلين .

والفرق عندى هنا بين المصرى فى عهد مضى .. والمصرى الآن حينما كان العطاء واجبا .. والمال مسئولية والتزاما .

ولقد تمنيت بينى وبين نفسى وأنا أقرأ قرارات إنشاء هذه الجامعات الأربع لو أنها أقيمت جميعا بتبرعات من أغنياء مصر القادرين سواء كانوا من أبناء المسئولين السابقين أو اللاحقين .. أو من أبناء الطبقة الجديدة التى أفاض الله عليها بأموال كثيرة لا نعرف مصادرها .. أو من أموال مليون فدان أكلتها العمارات وشقق التمليك من قلب أراضينا الزراعية .

تمنيت هذا واكتشفت أن أميرة القصر كانت أرحم قلبا وأنقى ضميرا وأكثر صدقا مع نفسها ومع هذا الشعب رغم أننا مازلنا نسمى هذا العصر العهد البائد .. فماذا فعل بنا العهد غير البائد .

وما دامت الأمنية لم تتحقق فلم يبق أمامنا غير أن نحاول الاقتراب بصورة موضوعية وإن كان فيها قدر من الإحساس بالمرارة من قرار الحكومة بإنشاء أربع جامعات خاصة .

لا أدرى لماذا حدث ارتباط غريب دار فى رأسى بين هذه الجامعات وشركات توظيف الأموال .. هل لأن كليهما ظهر فجأة وبلا مقدمات ؟ أم لأن الشعب فى الحالتين كان هو الضحية رغم أن الحكومة كانت صاحبة القرار ؟ أم لأننا أمام كائن مجهول الملامح اسمه الجامعات الخاصة وهو يشبه تماما فى هيئته شركات توظيف الأموال فى بداية ظهورها .. أم أننى أخشى أن يكون مصير أبنائنا فى هذه الجامعات مثل مصير آبائهم من ضحايا شركات توظيف الأموال ؟

وربما كان هناك سبب أقوى لهذه المقارنة ، وهو أن الدكتور حسين كامل بهاء الدين كان أمينا مع نفسه عندما حذر الطلاب وأولياء الأمور فى أكثر من حديث فى الأسبوع الماضى من أن قضية الاعتراف بالشهادات التى ستمنحها هذه الجامعات مازالت تحت الدراسة .. ومعنى هذا أنها جامعات بلا شهادات أى بلا حيثية .. فكيف تصدر الحكومة عملة غير قابلة للتداول وتبيعها للناس .

ولهذا أتمنى ألا تكمل الجامعات الخاصة كارثة شركات توظيف الأموال ويجد الطلبة وأولياء الأمور أنفسهم أمام ورقة مالية مزورة غير قابلة للتداول ، وحتى الذين أصدروها لا يعترفون بها .

من هنا احترمت المحاذير التى تحدث عنها د. بهاء الدين وزيرالتعليم ونبه إليها أولياء الأمور والطلبة .

والحقيقة أن موضوع الجامعات الخاصة سار بسرعة رهيبة لا تتناسب أبدا مع أهمية الموضوع وخطورته وتأثيره على العملية التعليمية فى مصر .

إن وزارة التعليم كانت وما زالت تحاول أن تعالج مشاكل المعاهد الخاصة والتى أوقفت عددا كبيرا منها بعد أن اكتشفت أنها عملية نصب تشبه تماما شركات توظيف الأموال .. فهى معاهد بلا منشآت ولا معامل ولا أساتذة .. وتحصل على آلاف الجنيهات من الطلبة الذين ألقى بهم مكتب التنسيق خارج أسواره ولم يجدوا مأوى غير هذه المعاهد اللقيطة.

واتخذت وزارة التعليم مجموعة من الإجراءات الحاسمة لوقف عمليات النصب والتدليس فى المعاهد الخاصة .

وكان ينبغى أن نضع أمام أعيننا قضية الجامعات الإقليمية التى أنشأتها الدولة وتوسعت فيها وتحولت إلى قنبلة موقوتة ، حيث يعانى معظمها من نقص الإمكانيات والأساتذة باستثناء مجموعة قليلة منها استطاعت أن تسد الثغرات وتواجه مشاكلها وإن بقيت هذه الجامعات حتى الآن واحدة من أهم نقاط الضعف فى التعليم الجامعى فى مصر .

إن تكلفة التعليم الجامعى فى العالم كله تمثل عبئا ثقيلا جدا سواء على الحكومات أو الأفراد . والقضية ليست مجرد قرار يصدر هنا

أو هناك بإنشاء جامعة .. فالقضية ليست لافتة توضع على مبنى .. ولكنها مسئولية .. وإمكانيات وبناء عقول .. ومستقبل شعب .

ولأن قرار إنشاء الجامعات الخاصة أصبح حقيقة واجبة التنفيذ فإن هناك بعض الملاحظات التى اتمنى أن نضعها فى اعتبارنا وأن نستفيد من دروسنا السابقة فى إنشاء الجامعات الإقليمية أو فى تفريغ جامعاتنا الكبرى من أهم الكفاءات فيها أمام إغراء الإعارات وطلبات الجامعات الأخرى فى الدول الشقيقة .

- أول هذه المخاوف هو المنشآت .. وهذه المنشآت لا تعنى فقط مدرجات يتعلم فيها الطلبة ولكنها تعنى المكتبة والمعمل والمنهج والأستاذ .. فهل قدرنا عدد الأساتذة المطلوبين فى هذه الجامعات ، وهل سألنا أنفسنا من أين سيتم توفيرهم .. وماهو موقف المناهج .. وهل حددت كل كلية مناهج دراستها .. وعلى أى أساس تم تحديد هذه المناهج ، وما هى اللجان العلمية التى ناقشتها .. وماهى الصورة النهائية لمنهج كل قسم فى كل كلية .. إن البرنامج التعليمى هو أهم عناصر الدراسة الجامعية ، وهو يحتاج إلى إمكانيات بشرية وعلمية ومادية .. فهل هذه العناصر تمت دراستها ومناقشتها بصورة كاملة .

- لا يعقل مثلا أن تكون هناك جامعة بلا منشآت .. حتى ولو توافرت عناصرها الأساسية فى المنهج والأستاذ . والغريب أن معظم

الجامعات الأربع التى وافقت الحكومة على إنشائها لم تستكمل مبانيها..

- إن الحكومة لابد أن تحسم من البداية تقييم الشهادات العلمية التى ستمنحها هذه الجامعات حتى لا تظهرمشكلة أخطر بعد سنوات هى وجود آلاف الطلبة الذين يريدون اعترافا بشهاداتهم العلمية .. ولهذا كان ينبغى أن تشمل موافقة الحكومة على إنشاء هذه الجامعات دراسة كاملة عن مناهجها وشهاداتها وموقف النقابات المهنية من هذه القضية بصفة عامة .

كيف لا تسأل الحكومة نقابة الأطباء أو المهندسين أو الصيادلة عن ذلك .. وكيف لا يكون لهذه النقابات رأى فى أطباء سيتخرجون من جامعات جديدة لا يعرفون عنها شيئا .. وكيف يأتمن الشعب طبيبا تخرج من هذه الجامعات ويحمل شهادة لا يعترف بها أحد .. وكيف سيمارس الطب ويتحمل مسئولية علاج الناس والدولة لا تعترف بشهادته العلمية.

لقد كان د. بهاء الدين وزيرالتعليم أمينا مع نفسه وهو ينبه الآباء والأبناء إلى قضية الاعتراف بالشهادات العلمية لهذه الجامعات وأنها قضية مؤجلة ، وأنا لا أتصور أن يكون ذلك محلا للتأجيل .

- نأتى بعد ذلك إلى قضية الأساتذة وكيف تستطيع أربع جامعات توفير العدد الكافى من هيئة التدريس فى فترة زمنية قصيرة

جدا لا تتجاوز الأسابيع لكى تغطى احتياجاتها .. إن فى ذلك محاذير كثيرة .

أن تحاول هذه الجامعات إغراء كبار الأساتذة فى الجامعات الحكومية وتفرغ هذه الجامعات من أهم كفاءاتها .

أن تلجأ إلى ملء الفراغ بكفاءات علمية محدودة القيمة سواء فى شهاداتها العلمية أو إمكانياتها .

أن تعجز عن توفير هذه الاحتياجات وتصبح الجامعات الخاصة مجرد لافتات تحمل اسم جامعة وهى غير قادرة على توفير المناخ العلمى المناسب ، وهذه المحاذير الثلاثة لها خطورتها سواء جاءت على حساب الجامعات الحكومية أم حاولت ملء الفراغ بأى صورة من الصور.

وفى ظل بقايا الدفعة المزدوجة فى الثانوية العامة القديمة .. أو الثانوية العامة الجديدة سيجد آلاف الآباء أنفسهم يقفون أمام شبح جديد اسمه الجامعات الخاصة .. حيث يدفعون الآلاف لمجرد وجود مكان لأبنائهم وسط هذا الزحام المخيف .

إن فكرة الجامعات الخاصة فكرة عظيمة وهدف لا نختلف عليه .. ولكن الأمر يحتاج إلى دراسة أعمق وأشمل حتى لا نجد أنفسنا ونحن نحاول إيجاد حل لمشاكلنا أمام مشاكل أخرى أكثر تعقيدا وضررا .

ولن أسرف فى تفاؤلى وأتصور أن يخرج من أغنياء مصر من يبنى لها يوما جامعة مثل جامعة القاهرة ، فهذا يدخل فى نطاق الحلم المستحيل ، ولكننى أتمنى ألا تعيد الجامعات الخاصة كارثة شركات توظيف الأموال ، حيث نجد على الأرصفة آلاف الطلاب الذين يحملون شهادات مثل صكوك الريان لا يعترف بها أحد .

المصريون .. وقضية الانتماء

كانت قضية الانتماء جانبا من أهم مكونات الشخصية المصرية على امتداد عصور التاريخ .. ورغم أن مصر واحدة من أكثر دول العالم التى تعرضت لمحاولات غزو مختلفة الأشكال إلا أن هذه المحاولات فشلت فى تغيير هوية الشعب المصرى وتمسكه بأرضه وإدراكه الواعى لدوره ومسئولياته .

ويبدو أن هذا الجانب يشهد الآن متغيرات غريبة جدا علينا .. كان من الصعب أن يفرط المصرى فى هويته أو أن يبحث عن وطن آخر مهما كان بريق الحياة فيه .. وكنا رغم قسوة الظروف الاقتصادية لا نرى بلادا أجمل من بلادنا مهما كان حجم متاعبنا فيها .

ولكن هناك ظاهرة خطيرة تحدث فى مصر الآن .. إن عائلات مصرية كثيرة ، وأقول كثيرة ، تحاول الحصول لأبنائها على الجنسية الامريكية ، منهم المسئولون .. ومنهم اثرياء الطبقة الجديدة .. ورجال

الأعمال .. حتى وصل الأمر إلى سفح الراقصات .. أى أن الظاهرة اجتاحت الهرم الاجتماعى فى مصر كاملا .. البعض يشترى جواز السفر الأمريكى بأمواله .. والبعض يسعى إليه عن طريق الدراسة والتعليم .. وهناك من يأخذ زوجته فى أول طائرة لكى تضع وليدها فى بلاد العم سام ويكون من حقه أن يحمل الجنسية الأمريكية ويعود إلى أرض الكنانة حاملا معه جواز السفر الجديد كواحد من رعايا القوة العظمى فى العالم .

وأنا هنا لا أناقش أهمية أمريكا كوطن أو مجتمع أو تاريخ .. فمهما كانت تحفظاتنا عليها إلا أنها دولة كبرى لها إمكانياتها العظيمة فى كل جوانب الحياة المعاصرة .. وتتمتع بثقل كبير لا مجال للتشكيك فيه .

صحيح أن أمريكا دولة بلا ثقافة وبلا تاريخ وبلا جذور ولكنها تحاول بكل الوسائل أن تكون لها ثقافتها وتاريخها وجذورها حتى لو كان ذلك على حساب ثقافات الآخرين .

والغريب أن يفكر الأب المصرى بكل جوانب الانتماء عنده أن يحمل ابنه جواز سفر أجنبيا .

من الغريب أن يتصور الأب المصرى مستقبل ابنه فى بلاد غير بلاده ووطن غير وطنه وهو لم يزل طفلا وليدا .

هل هو الخوف من المستقبل .. هل هو الخوف من الحساب إذا جاء يوم الحساب .. هل هناك شعور بعدم الأمان .. وما هى أسبابه .. ومن أين جاءت تلك القناعات التى تجعل الأب يحمل زوجته لتضع وليدها فى بلاد أخرى من أجل جواز سفر ..؟

والشيء المخيف أن هذا يحدث بين شرائح اجتماعية وثقافية متميزة وفى مواقع المسئولية والقرار ، هؤلاء الذين نطلق عليهم الصفوة .. فكيف اختارت هذه الصفوة هذا المستقبل لأبنائها بعيدا عن أوطانهم وكيف وصلت إلى هذه النتيجة المبكرة جدا بحيث تفرض حياة ابنائها ومستقبلهم فى وطن آخر غير وطنهم .

إن كثيرا من العائلات العريقة التى وفدت إلى مصر ارتبطت بهذا الوطن ارتباطا وثيقا .. وعميقا .. حتى أسرة محمد على التى حكمت مصر أكثر من مائة عام لم تغير انتماءها .. ومات جميع أبنائها تقريبا فى مصر ودفنوا فى ترابها .. بل إن المنفيين منهم أمثال الخديو إسماعيل والملك فاروق كانت وصيتهم قبل رحيلهم إن يدفنوا فى ترابها ..

ومن يقرأ كتاب الخديو عباس «عهدى» يشعر بعمق انتماء هذا الرجل لمصر أرضا وتاريخا ، وظل طوال صفحات الكتاب لا يستخدم كلمة مصر مجردة بل كان يقول وطنى مصر .

وفى مصر عاش جمال الدين الأفغانى وارتبط بها ، وكذلك كان الشعراء والمفكرون والفنانون العرب الذين عاشوا وماتوا على ترابها النبيل .

هكذا كانت مشاعر الغرباء الذين سكنوا أرض مصر وشربوا ماء نيلها . وحتى المصريون من الأصول التركية والكردية والشراكسة ، لم يقل أحد منهم يوما أنه غير مصرى .. بل إن كثيرا من كتابنا ومفكرينا كانوا من أصول غير مصرية ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقى وتوفيق الحكيم ويحيى حقى .. ولم نشعر يوما أن واحدا منهم قد تمنى بينه وبين نفسه أن يعود لأصوله أو أصول أجداده .

فما الذى جعل المصرى يفكر الآن فى أن يحمل جواز سفر آخر .. كان الفلاح المصرى إذا فرط فى أرضه فإنما يفرط فى عرضه .. فكيف نفرط فى هويتنا .. وجذورنا وانتمائنا .

إن قضية الانتماء من أخطر القضايا التى يجب أن نناقشها بصراحة ووضوح لأنها تمثل مستقبل هذا البلد .

إن الانتماء هو الذى يجعل الجندى يموت دفاعا عن أرضه .. ويجعل الكاتب يبدع من أجل شعبه .. ويجعل الفلاح ينتج لكى يوفر احتياجات مجتمعه .. ويجعل الإنسان يبيع كل ما يملك إذا تعرض وطنه لمحنة أو كارثة .. هذا الانتماء يمثل تلك العلاقة الحميمة بين

الإنسان وجذوره بكل ما تحمل هذه الجذور من جوانب الثقافة والحضارة والتاريخ.

وهناك مقومات أساسية تشكل هذا الانتماء .. وهى مقومات تمتد مع سنوات العمر من الطفولة حتى الكهولة .. ونتعلم دروسها الأولى فى لبن أمهاتنا .. وأحاديث آبائنا .. ودروس معلمينا .. وهى لذلك سلسلة متصلة الحلقات بين البيت .. والمدرسة والمجتمع .. كل حلقة منها تمثل أهمية خاصة فى تشكيل وجداننا وتنوير عقولنا وشعورنا بالانتماء .

فأين كان الخطأ .. ومن أين جاء ..؟ إذا كان الأب يبحث عن جواز سفر جديد لوليده .. وإذا كانت المدرسة تلغى حصة التاريخ ، وإذا كان المجتمع يقدم نماذج مشوهة للسلوك والحياة فمن أين سيجىء الانتماء ..؟

إذا كان الطفل قد ولد وهو لا يدرك هويته لأنه لا يجد الأب الذى يحدثه عنها .. بل إنه غيَّر كل ملامحها وهو لم يزل فى مهده .. وإذا كانت المدرسة قد بخلت عليه بكل رمز جميل ينمى ذاكرته .. وينمى مشاعر الاعتزاز بوطنه .. وإذا كان المجتمع قد نسى كل مقوماته واستبدلها بمقومات أخرى .. من أين سيجىء الانتماء ..؟ وكيف نطلب من هذا الطفل بعد سنوات أن يبقى فى هذا الوطن ويدافع عنه ويموت من أجله ؟

ولهذا لم يكن غريبا أن نجد شبابنا وقد اختلت فى نظرهم كل القيم ...

من أجل هذا كانت معاركنا لكى نحافظ على ما بقى بين أيدينا من مقومات ضاع منها الكثير .. كنا نحاول أن نمسك بتلك الخيوط التى تربطنا بالماضى حتى وإن كانت واهية .. كنا نسعى لأن نبقى على قصورنا بكل عمارتها الجميلة .. وشوارعنا بكل تناسقها .. ورموزنا التاريخية بكل جوانب الشموخ فيها .. وذاكراتنا قبل أن تشيخ ..

إن حرصنا على ذلك كله ليس من أجل أجيال ستمضى فقد عاشت زمانها .. ولكنه من أجل أجيال ستجىء من واجبنا أن نحمى جذورها ومن حقها علينا أن نغرس فيها بذور الانتماء أمام هذا الطوفان الذى يكتسح جذور العالم كله ..

حينما نجد أثرا مهانا .. أو تاريخا مزيفا .. أو قصرا مهدما أو رمزا محطما أو أبا يبحث لابنه عن جواز سفر جديد .. فيجب أن نقف أمام ذلك كله ولن يكون ذلك بالأغانى الوطنية الركيكة التى نرددها بمناسبة وغير مناسبة .. وإنما يكون بالوعى الكامل بأهمية الانتماء فى تشكيل وجدان الإنسان وعقله وضميره .

يجب أن نعلم أبناءنا أن لدينا وطنا جميلا .. وحضارة عريقة وشعبا قادرا على أن يكون صاحب دور ورسالة .

يجب أن نقف ضد كل المحاولات التى تهدف إلى تشويه هويتنا وتشككنا فى قدراتنا .

يجب أن نعلم أن تمثال الحرية شىء جميل ورائع . ولكن أبا الهول أعرق وأعظم .. وأن نهر الميسيسبى كبير جدا ، ولكن نيلنا العريق أكبر وأعرق .. وأن ناطحات السحاب مبهرة .. ولكن قصورنا أبهى وأرفع.. وان سفن الفضاء شىء مذهل ولكن أهرامات الجيزة أذهلت العالم كله ومازالت .

يجب أن نعلم أبناءنا أن جواز السفر المصرى تاج فوق رؤوسنا جميعا من حقنا أن نفخر به ولا نرضى عنه بديلا حتى ولو كان العم سام.

سطوة المال .. وأقدار البشر

عندما سيطرت علينا سطوة المال .. اختلت موازين الأشياء .. وتسلطت على الناس رغبات محمومة فى جمع المال حلالا كان أم حراما.. وزاد حجم الأرصدة وتراجع صوت الضمائر .. وارتفعت ناطحات السحاب وهبطت قامات البشر ، وأصبح الإنسان هو أقل الأشياء قيمة وأرخصها ثمنا .

وما حدث أخيرا فى عمارة مصر الجديدة أكبر دليل على ذلك ورغم أنه لم يكن الدليل الأول إلا أنه كان أوضح وأقسى هذه الدلائل .

وحينما تهون قيمة البشر فلا شيء بعد ذلك يبقى ، وما حدث فى عمارة مصد الجديدة أكبردليل على هوان هذا الإنسان وتراجع قيمته.

وإذا كان الإنسان يتحمل كل ألوان القبح حيا .. فإن أسوأ الأشياء أن يكون هذا القبح هو آخر ما يغمض عليه عينيه فى لحظات النهاية .. ولا شك ان مأساة ضحايا عمارة الموت أنهم شاهدوا أفظع الوان

هذا القبح حينما تهاوت على رؤوسهم العمارة الكئيبة وأصبحوا بعض انقاضها .. ثم كان المشهد الدرامى المؤلم يتجسد فى صورة البولدوزرات التى حملتهم مع ما حملت من بقايا أنقاض العمارة المنهارة.

وللأسف الشديد أن كثيرا من المسئولين الذين ذهبوا هناك لإنقاذ الضحايا يتحملون مسئولية هذه الجريمة .. لأن صاحب العمارة لم يرفع جدرانها بدون تصريح .. ولم يخالف بدون موافقة ، ولم يكن المخالف الوحيد بل ان هناك ما يقرب من ٧٠٠ ألف مخالفة فى محافظة القاهرة كما اعترف نائب محافظ القاهرة على شاشات التلفزيون . فماذا عن بقية المحافظات والمخالفات فيها .

فالمسئولية هنا ليست مسئولية تجار ومقاولين ولكنها مسئولية أصحاب القرار ، وربما كانت جريمة صاحب القرار أخطر لأن المفروض أن هؤلاء الضحايا الذين ماتواتحت الأنقاض قد ائتمنوه على حياتهم وحياة أبنائهم وهو يتحمل مسئولية ذلك أمام الله وأمام الناس .

والخطورة الآن أن هناك زواجا غير معلن بين سلطة المال وسلطة القرار فى مصر .. ويتدرج هذا الزواج على مستويات مختلفة .. إنه يبدأ بين وحدات الحكم المحلى وصغار المقاولين فى تجاوزات صغيرة حتى يصل إلى الحيتان الضخمة فى ناطحات السحاب وهدم القصور وإنشاء أوتعلية عمارات الموت ..

هذا الزواج غير المعلن بين سلطة المال وسلطة القرار ينعكس فى

حالات صارخة وواضحة أمام الجميع .. ولا يحتاج إلى جهد كبير لرصده.

ومن الخطأ أن نتصور أن ذلك يحدث فى الإدارة المحلية فقط .. أو بين صغار الموظفين فيها .. أو فى الإدارات الهندسية فى المحافظات أو عند حدود تصاريح البناء .. إن الأمر يتعلق برؤوس كبيرة لم تعد تفرق بين حدود المال العام والمال الخاص ومسئولية القرار وأمانته والمصالح الذاتية وحدودها .

إن نائب محافظ القاهرة يعترف أن عدد المخالفات فى القاهرة يبلغ ٦٨٠ ألف مخالفة .. وفى رواية أخرى ٧٠٠ ألف مخالفة .

ولو كانت كل مخالفة تشمل شقة واحدة فنحن أمام ٧٠٠ ألف شقة مخالفة .. وإذا كانت خمس شقق فنحن أمام ٣,٥ مليون شقة مخالفة .. ولو دفع كل مخالف عشرة آلاف جنيه غرامة فنحن آمام ثلاثة مليارات ونصف مليار جنيه ، الأرقام هنا يمكن أن تدخل فى سراديب مخيفة من الرشاوى والإكراميات وشراء الذمم ابتداء بموظف صغير فى المحافظة وانتهاء بأكبر رأس فيه .

وربما كان قطاع البناء والمقاولات من أكثر القطاعات التى شهدت هذا الزواج غير المعلن بين سلطة المال وسلطة القرار .. والسبب فى ذلك يرجع إلى أنه أكثر القطاعات إغراء بتحقيق الأرباح الخيالية .. بجانب أنه لا يحتاج إلى خبرات أو إمكانيات علمية أو فنية متقدمة .. وهو

مجال واسع ومفتوح لكل من يريد أن يحقق أرباحا ومكاسب ابتداء بمقاولى المدافن وانتهاء بتجار الأبراج وشقق التمليك الفاخرة .

هو القطاع الذى لا يعرف فيه الإنسان إذا ما كانت مواد البناء سليمة أو فاسدة .. وهو القطاع الذى لايستطيع فيه أحد تحديد التكلفة الحقيقية للأشياء .. وهو قبل هذا قطاع يقبل كل ألوان التجاوزات ابتداء بالأسمنت الفاسد وانتهاء بالذمم الفاسدة .

وقطاع المقاولات هو أخطر قطاع شهد حركة دائمة فى مصر فى السنوات الماضية .. بل إنه يحتل صدارة قائمة التجاوزات فى النشاط الاقتصادى فى مصر . فالأراضى الزراعية التى تم تبويرها بمئات الألوف من الأفدنة كانت لحساب هذا القطاع .. وإذا كان قد تم تبويرمليون فدان وتحويلها إلى أراضى بناء فإن معنى ذلك أنها تحولت إلى مليارات الجنيهات التى دخلت جيوب المقاولين والمسئولين والسماسرة .

والأراضى التى تنازلت عنها الحكومة لصالح الأفراد بأسعار رمزية كانت فى حقيقتها صورة من صور هذا الزواج غير المعلن بين سلطة المال وسلطة القرار .. فإذا حصل شخص ما بنفوذه على قطعة أرض مساحتها مائة ألف متر بسعر دولارواحد للمتر فى منطقة ما ثم باعها بسعر خمسين دولارا للمتر ، وقد حدث ، فقد ربح فيها خمسة ملايين دولار أى ١٧ مليون جنيه مصرى .. والأمر لايتجاوز هنا توقيع وزير أو مسئول بالموافقة على تخصيص هذه الأرض .

ولم يحدث ذلك مع شخص أو عشرة .. بل حدث مع المئات ، ولكن من منا يستطيع الحصول على التوقيع الكريم للمسئول الذى يجعل الإنسان بين يوم وليلة يملك خمسة ملايين دولار .. وما هو نصيب صاحب التوقيع منها .

تأتى بعد ذلك شريحة أخرى تتمثل فى مجموعة من البشر حصلوا على شاليهات وفيلات وقصور بأسعار رمزية ثم باعوها بالملايين ولم يحصل كل واحد منهم على شاليه واحد أو فيلا واحدة له ولأسرته فى اكثر من مكان .. ولأبنائه ولزوجته وأقاربه حتى الدرجة العاشرة .. ثم بدأت بعد ذلك عمليات البيع والتجارة .. والساحل الشمالى أكبر دليل على ذلك .. هناك من حصل على أراض وشاليهات وكبائن له ولكل افراد أسرته وأبنائه وزوجته ثم باعها بالملايين .. وقد حصل عليها بحكم منصبه وسلطاته .

تأتى بعد ذلك الشريحة الرابعة وهى التى تحدث عنها نائب محافظ القاهرة وهى المخالفات التى تمت فى القاهرة وعددها ٧٠٠ ألف مخالفة .. وهذه المخالفات يمكن أن تتحول إلى مليارات الجنيهات إذا حاولنا مناقشتها بمنتهى الموضوعية .

إن هذه المخالفات أخذت حصيلة جهد أبناء مصر الذين عملوا فى الخارج ووضعوا تحويشة عمرهم فى شراء شقة أو سكن يأويهم بعد سنوات الغربة الطويلة وها هى تسقط على رءوسهم .

وكان من السهل جدا أن يخالف أحد الملاك فى بناء عشرة طوابق ثم يدفع مخالفة مائة ألف جنيه .. وهذا ما حدث مع عمارة الموت فى مصر الجديدة .. أى أن الدولة أخذت ثمن قتل هؤلاء الأبرياء حينما سمحت بالتجاوز مقابل مبلغ من المال .. فالخطأ هنا ليس خطأ مالك قتل السكان ولكنه خطأ أجهزة تواطأت معه وقبضت ثمن تواطئها ..

لو أن هذا المالك لم يحصل على تصريح بالبناء .. ولم يدفع الغرامة .. ما قامت هذه العمارة وما مات الناس تحت أنقاضها وما أكثر الأمثلة التى حدثت فيها تجاوزات .. ومن أراد أن يعرف فليذهب إلى ٧٠٠ ألف موقع فيها مخالفات صارخة سكتت عليها الدولة .

والشىء الغريب أن محافظ القاهرة يستنكر هذه المخالفات وقد حدثت جميعها فى عهده حينما كان محافظا للقليوبية ثم الجيزة ثم القاهرة .. فأين كان سيادة المحافظ ..

أمام مريديان القاهرة ١٣ طابقا مخالفا فى عمارة واحدة فقد حصلت محافظة القاهرة على مليونى جنيه غرامة عنها .. بينما اخذ عدد من المسئولين الكبار شققا فيها .. وهذا يحدث فى عمارات كثيرة جدا فى مصر تأخذ المحافظة نصيبها من المخالفات ويأخذ المسئولون نصيبهم من الشقق .. فكيف يرضى مسئول رفيع المستوى أن يبيع ضميره وسمعته وأمانة منصبه مقابل شقة فى بناء مخالف . وكيف يؤتمن

مثل هذا الشخص على مصير شعب ومستقبل أمة وحياة هؤلاء الذين ماتوا تحت الأنقاض .

والمشكلة الآن أن قطاع المقاولات فى مصر يشهد منذ فترة طويلة هذا الزواج السرى مع سلطة القرار .. وهناك قطاعات أخرى تم فيها زواج مشابه فى كثير من مشروعات الخصخصة التى تم بيعها . منها أيضا وربما كان آخرها الجامعات الخاصة التى حصلت على ٤٠٠ مليون جنيه من البنوك لكى تتاجر بها فى تعليم أبنائنا ..

والأغرب من ذلك كله أن هذا الزواج غير المعلن انعكس بصورة مباشرة على عشرات المكاتب الخاصة التى أنشأها أبناء المسئولين فى الدولة لممارسة الأنشطة التجارية سواء كانت مقاولات أو تجارة أراض أو مبان أو مكاتب استشارية .. وكان العرف السائد دائما أن يكون هناك فصل تام بين سلطة القرار ومناطق العمل التجارى والأنشطة الاقتصادية .. ويكتسب ذلك أهمية خاصة فى الفترة الحالية حيث تشهد مصر عمليات بيع واسعة النطاق فى إطار برنامج الخصخصة ، وكان ينبغى أن يكون ذلك بعيدا عن كل الشبهات .. ولكن قائمة أبناء كبار المسئولين الذين يعملون بالأنشطة التجارية تكاد تسد ضوء الشمس .

يضاف لذلك أن بقاء المسئول فى موقعه فترة طويل من الزمن يجعله يخلط أحيانا بين ماله الخاص ومال الشعب الذى ائتمنه على هذا

المال .. وهذا التداخل يمكن أن يؤدى إلى كارثة وخاصة إذا كان المسئول يمارس أعمالا أخرى وهو فى موقع المسئولية ، وهذا ضد القانون الدستور وضد طبيعة الأمور .. وقبل هذا هو ضد الأمانة والمسئولية .

امام هذا كله كانت سطوة المال تعلو كل يوم وتغيب أمام دخانها الكثيف بقية من سحابات ضوء كنا نتمسك بها ونرى فيها مستقبلا أفضل وحياة أكثر أمنا واستقرارا .. ولكن مع سطوة المال تراجعت قيمة الإنسان ، ولم يكن غريبا أمام ذلك كله أن تعجز أجهزة الدولة رغم كل إمكانياتها عن إنقاذ مائة مواطن سقطت فوقهم عمارة ، وأن يتحدث العالم ونحن على أبواب قرن جديد عن البلدوزرات التى مزقت جثث الموتى .. كانت جريمة فى البداية عندما قبلت الدولة أن تأخذ من المالك غرامة مخالفة بناء ..

وكانت جريمة فى النهاية أن تعجز أجهزتها عن انقاذ الضحايا من تحت أنقاض العمارة المنهارة .. وأن يبحث الناس عن بقايا أمواتهم ولا يجدون لها أثرا ..

فالدولة باعتهم فى البداية للمقاولين ثم باعتهم مع النهاية لتجار الموت .. وكما بخلت عليهم بالسكن .. بخلت عليهم بالكفن .

ويبقى بعد ذلك كله إن هذا الزواج السرى بين المال والقرار أصبح يهدد كل شىء فى حياتنا لأن عمارة الموت فى مصر الجديدة أحد أبناء هذا الزواج الباطل .

المثقفون .. وقضايا الوطن

كان المثقف المصرى يوما فى طليعة الصفوف التى قادت حركة النهوض والتطور فى مصر .. وطوال هذا القرن الذى أوشك على الرحيل كان المثقف المصرى فى مقدمة القوى الاجتماعية التى صاغت مسيرة الحياة على ضفاف النيل .. ولم يقتصر هذا الدور على جوانب الفكر والإبداع والثقافة بل إنه شمل كل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وقد لعب عدد كبير من مثقفى مصر أدوارا بارزة فى حركة المجتمع .. كان منهم الشيخ محمد عبده فى التنوير الدينى .. ولطفى السيد فى احترام العقل وقاسم أمين فى قضايا المرأة .. وطه حسين فى قضايا التعليم والثقافة .. بجانب أدوار كتابنا الكبار فى الحياة السياسية مثل العقاد وهيكل ومصطفى عبدالرازق وغيرهم من طليعة

المثقفين المصريين الذين مارسوا العمل السياسى من خلال الأحزاب قبل الثورة .

وقد ارتبطت هذه الأدوار بمراحل الازدهار الثقافي فى النصف الأول من هذا القرن والتى وصلت إلى قمة ازدهارها مع نهاية الأربعينات أزهى فترات الثقافة المصرية فى هذا القرن والتى واكبتها تجربة ليبرالية على المستوى السياسى لايمكن تجاهل دورها وتأثيرها الفكرى .

فى هذه الفترة لعب المثقفون دورهم فى الحياة العامة رغم ظروف الاحتلال وعدم الاستقرار .. ولم يشهد المجتمع المصرى انقساما حادا بين المثقفين المصريين فى هذه الفترة وخاصة أن هناك قضايا رئيسية وحدت بينهم كان على رأسها قضية الاستقلال الوطنى وتحرير الأرض المصرية من الاحتلال الانجليزى .

وبعد ثورة يوليو تراجع دور المثقفين ولم يعد لهم ذلك البريق القديم وترتب على ذلك أن وقع الكثيرون منهم فى فخ التصنيفات الإيدلوجية التى لعبت بها الثورة حتى تتخلص من القوى السياسية والفكرية القديمة ، ولكى تفتح أبوابا لأنصارها من المثقفين الجدد . وشهدت هذه الفترة تصفية كاملة لعدد كبير من رموز الثقافة المصرية ، وواكب ذلك بطبيعة الحال تصفية الأحزاب السياسية والقوى التقليدية فى المجتمع المصرى .

ومن هنا كانت بداية الانقسامات فى صفوف المثقفين المصريين ..

جاء الانقسام الأول فى الخمسينيات حينما اصطدم الشيوعيون بالإخوان المسلمين ..

وجاء الانقسام الثانى فى الستينيات مع التأميمات والقوانين الاشتراكية حيث تولى الشيوعيون ضرب القوى السياسية الأخرى من أحزاب قديمة أو إخوان مسلمون .. وهنا ظهر أهل الثقة وأهل الخبرة وما تبع ذلك من تصنيفات على المستوى الثقافى والاجتماعى بين من استفادوا من الثورة ومن أضيروا منها ..

وفى السبعينات كانت المواجهة بين التيارات الدينية وبين الشيوعيين وشملت تصفية حسابات قديمة بينهما .

ثم كان الانقسام الخطير فى صفوف المثقفين بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد وما ترتب عليها من معارك بين مؤيدى السلام ومعارضيه .. ومازال هذا الانقسام ينخر فى صفوفهم حتى الآن .

ثم كان الانقسام الضارى حول قضية الإرهاب وبدلا من أن نقف جميعا صفا واحدا لمواجهة هذه الكارثة انقسم المثقفون مرة أخرى وسحبوا ملفاتهم القديمة بين علمانيين وإسلاميين أو أصوليين وتنويريين .. وبدلا من أن تتحد مواقفهم دارت بينهم معارك شرسة ابتداء بالتكفير وانتهاء

بالعمالة .. ووصل الأمر أحيانا إلى تجاوزات فجة نالت الإسلام العقيدة والدين رغم أن الإسلام برىء من الإرهاب وما يردده الإرهابيون .

ورغم هذه الانقسامات الواضحة كان من الممكن أن ترصد مواقف المثقفين المصريين فى حالات محدودة .. حدث هذا مع أخطاء التطبيق الاشتراكى وتجاوزاته فى عمليات التأميم والحراسة والمصادرة .

وحدث هذا مع سياسة الانفتاح الاقتصادى وما شابها من أخطاء ..

ولكن الظاهرة الغريبة الآن هى غياب صوت المثقفين المصريين عن الساحة تماما رغم أن المجتمع يشهد الآن مرحلة تحول غاية فى الخطورة .

ما يحدث فى مصر الآن انقلاب صامت فى البناء الاجتماعى ولابد أن تكون لدينا الشجاعة لأن نقول أن مصر تشهد الآن ميلاد طبقة جديدة بكل ما يحمل ذلك من متغيرات فكرية واجتماعية واقتصادية .

والشىء الطبيعى فى سياق أى مجتمع أنه قادر على إفراز طبقاته حسب مكوناته الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والحضارية ، وحسب طبيعة كل مرحلة ، وإن كان ذلك يتم عبر فترات زمنية .. فليست هناك طبقة جديدة تخرج على سطح الأرض بين يوم وليلة ، إن التطور فى حركة المجتمع هو الذى يفرز طبقاته وهو الذى يدفع بها حسب ظروفه ومكوناته .. ويحدد دور كل طبقة وحجمها ومسئولياتها .

ولكن المؤكد أن ثورة يوليو غيرت التركيبة الطبقية فى مصر حينما أطاحت بطبقة الأثرياء والإقطاعيين والأحزاب القديمة وأعادت ترتيب طبقات المجتمع من خلال توزيع الأراضى ونسبة العمال والفلاحين والنقابات العمالية والجمعيات التعاونية .. ولاشك أن ذلك أعاد كثيرا من التوازن للمجتمع المصرى حتى وإن كان قد شهد تجاوزات صارخة وغير إنسانية فى عمليات التأميم والمصادرة وفرض الحراسات واستباحة أموال الناس ..

ولكن مصر الآن تشهد محاولة لفرض طبقة جديدة . أو بمعنى آخر خلق طبقة جديدة تمثل الرأسمالية المصرية التى يمكن ان تحل محل القطاع العام فى ظل برامج الخصخصة .

وفى ظل برنامج الخصخصة فإن المطلوب الآن تحويل ملكية القطاع العام الذى تملكه الدولة إلى القطاع الخاص .. ومن هنا تأتى عملية الإسراع بظهور هذه الطبقة الجديدة لكى تقوم بدور القطاع الخاص فى امتلاك أصول البلد ... وبما أننا حتى الآن لا نملك طبقة رأسمالية قادرة على شراء القطاع العام ، فلماذا لايتم «تصنيعها» بسرعة لكى تقوم بهذه المهمة ، وهذا الدور حتى وإن كانت غير مؤهلة للقيام به .

وهنا يجب أن نتساءل : من الذى حدد ملامح الطبقة الجديدة من رجال الأعمال .. وما هى المقاييس التى تم اختيارهم على أساسها ..

وما الذى يضمن أن الدولة اختارت أفضل العناصر .. وهل يمكن لجهاز إدارى مهما كانت قدرته أن يصنع رجل أعمال .. فما بالك إذا كان هذا الجهاز الإدارى يعانى كل أمراض الدنيا .

إننى أعرف أن فى مصر عائلات عريقة من الرأسمالية الوطنية التى كانت تمتلك المشروعات والمصانع والسمعة الطيبة ، ولكن بجانب هؤلاء توجد أسماء لقيطة كثيرة اقتحمت هذا المجال من المسئولين السابقين واللاحقين وكبار الموظفين والمغامرين والسماسرة ورؤساء شركات القطاع العام ..

فأين الوجه الحقيقى للرأسمالية المصرية التى ستحل محل الدولة فى ملكية القطاع العام الذى يمثل ثروة هذا الشعب ؟ هل هى الرأسمالية الحقيقية أم الرأسمالية «المصنوعة» والذى يجرى فرضها على الواقع الاقتصادى والاجتماعى فى مصر .

فإذا كانت الدولة هى التى اختارت رجال الأعمال الذين يحملون مسئولية هذا التحول الخطير فما هى مقاييس هذا الاختيار .. وعلى اى أساس تم .. وما هو حجم أرصدة هؤلاء فى البنوك .. وما هو تاريخهم الاقتصادى وخاصة فى مجال الإنتاج وليس مجال السمسرة .. لأن المشكلة الرئيسية أن معظم أنشطة الرأسمالية المصرية الجديدة تتركز فى عمليات السمسرة ، فهل نبيع القطاع العام لمجموعة من السماسرة يتاجرون فيه وفينا ..

إن كثيرا من الوجوه التى شاهدناها وجوه بلا تاريخ ، ومن حقنا أن نسأل كيف ظهرت ومتى ظهرت وماهو حجم نشاطها .. وهل هى بالفعل أحق الوجوه التى يجب أن تتصدر القائمة .. أم أن هناك من هم أحق بحكم تاريخهم وإمكانياتهم وعطائهم الطويل ، ولكنهم لايجدون الفرصة ولن يجدوها .

وإذا كانت ثورة يوليو قد أطاحت يوما بالتوازن الطبقى للمجتمع المصرى تحت شعارات العدالة الاجتماعية فإننا نشهد اليوم ميلاد طبقة جديدة تفرض على المجتمع فرضا .

فلماذا لا نترك الطبقة الجديدة تأخذ فرصتها فى النمو الطبيعى على أسس اقتصادية واجتماعية وحضارية ، ولماذا هذا الإسراع فى عمليات الخصخصة وبيع المشروعات .. ولماذا هذا الإصرار على فرض وجوه بعينها لتتقدم صفوف هذه الطبقة الجديدة .. وإذا كانت الأحزاب السياسية فى مصر قد جاءت بقرارات فوقية فنحن نعرف مصير التجربة وما وصلت إليه .. ويجب أن ندرك أن هناك فرقا شاسعاً بين إنشاء حزب سياسى حتى ولو فشل وإنشاء طبقة جديدة غير مؤهلة .. لأن ذلك يضر بالتوازن الاجتماعى وربما ترتبت عليه آثار خطيرة .

إننا لانطعن فى كل رجال الأعمال .. وأنا أعرف منهم نماذج مشرفة لها تاريخها فى خدمة الرأسمالية المصرية والمجتمع المصرى

تاريخا وتراثا .. ولكن مع هؤلاء اندست عناصر كثيرة من المغامرين يمكن أن تحوم حولها الشبهات .. ونحن هنا لا نناقش أحقية هذا أو ذاك ولكننا نناقش قضية أكبر وهى : هل يحق للدولة بأجهزتها التى تمثل الشعب كله وهى الأمينة على مصالحه وثرواته أن تصدر فرمانا بإنشاء طبقة جديدة ؟!

هذه القضية هى أخطر ما يواجه مصر الآن ، ويجب أن تناقش بصراحة وبعيدا عن أى حساسيات أو مخاوف فلسنا ضد أحد .. وفى نفس الوقت ليس لنا مع أحد إلا مصلحة هذا الوطن .

إننا جميعا نرحب برجال الأعمال ليقوموا بدورهم ، وندرك أهمية هذا الدور عبر مراحل تاريخنا المختلفة . ولكن ليس كل مسئول سابق يصلح لأن يحمل لقب رجل أعمال وهو فى حقيقته سمسار متجول ... وليس كل من ترك منصبا يحاول أن يستثمره من أجل جمع المال والعلاقات العامة .. وليس كل من أخذ قرضا وبنى به عمارة أو استغل أزمة الإسكان أو تاجر فى الأراضى رجل أعمال .. وليس كل من فتح كشكا للسمسرة أو تجارة العملة رجل أعمال .. إننا نريد رجال أعمال يدركون قيمة الإنتاج الذى يضيف لمصادرنا الاقتصادية موارد جديدة ولأرضنا مساحات جديدة ولشبابنا فرص عمل جديدة ، أما هؤلاء الذين يقومون ببيع المشروعات والديون والأصول فهم طبقة جديدة مستفيدة ولا علاقة لها بالرأسمالية المصرية العريقة .

ومهما كانت التحفظات على تجاوزات ثورة يوليو حينما أطاحت بالرأسمالية المصرية إلا أن شيئا من أموالها قد ذهب للشعب سواء للفلاحين أم العمال ، وبقيت المشروعات ملكا للدولة .. وبمعنى آخر إن تصفية الطبقة الرأسمالية كانت لحساب الشعب .. ولكن ما يجرى الآن تصفية للقوة الاقتصادية للشعب لصالح طبقة .. وكلاهما خطأ فى البداية والنهاية وخاصة إذا أدركنا أن وجوها كثيرة من أبناء الثورة نفسها تتصدر الآن قائمة النشاط التجارى فى مصر .

إن إنشاء طبقة جديدة على غير أسس ، مغامرة غير محسوبة ويمكن أن تترتب عليها نتائج فى غاية الخطورة .. فمهما كان الخلل فى المنظومة الاجتماعية فى مصر إلا أنها استقرت فى كثير من جوانبها رغم وجود هذا الخلل . ولكن الإسراع فى عمليات الخصخصة وظهور الطبقة الجديدة بهذه السرعة المبالغ فيها يمكن أن يحمل أخطارا كثيرة تهدد المجتمع كله .

إن الطبقات الاجتماعية لاتأتى بفرمانات فوقية ، ولكنها تخرج من تراب الأرض وتحمل سماتها وجذورها وأصالتها .. ويؤكد ذلك أن الأحزاب السياسية التى جاءت بقرارات وفرمانات لم تنجح فى ايجاد جذور لها ، وبقيت مثل الحشائش لاعمق لها ولا جذور بل ان الكثير منها مات قبل أن يولد وبقيت مجرد حبر على ورق .

وهذا مصير كل طبقة تولد خارج النسيج الحقيقى للمجتمع بكل مكوناته التاريخية والحضارية .

ولا أعتقد أن المجتمع المصرى يمكن أن يتحمل هذه المتغيرات السريعة والحادة جدا ، ولهذا يجب ألا تغرينا سرعة القطار ولا نقدر أماكن الخطر .

والغريب أنه فى الوقت الذى يشهد فيه المجتمع هذه المتغيرات الجذرية نحاول أن نبحث عن دور المثقفين المصريين وأين هم مما يدور حولهم ، فنجدهم جالسين فى الخنادق يتبادلون الاتهامات ويتراشقون بالكلمات ويشاركون فى المهرجانات .

إن قضية التحول الاجتماعى والاقتصادى الذى يجرى فى مصر الآن قضية بالغة الخطورة لأنها قضية مجتمع وشعب ووطن ، ويجب أن نناقشها بكل الصراحة والوضوح لان الخطأ فى تقدير نتائجها يمكن أن يكون باهظ الثمن .

حلمت لأطفال مصر

فى مصر الآن ٢٤ مليون طفل .. هذا ما اكدته أخيرا أرقام التعداد السكانى، وبينما كنت أقرأ هذا الرقم تصورت أمامى هذه الملايين التى تحمل أمانة المستقبل ..

سيكون منهم جيش مصر الذى يدافع عنها ويحميها ..

وسيكون منهم أطباء مصر الذين يداوون جراحها ..

وسيكون منهم كتاب مصر الذين يحملون قدسية ضميرها .

وسيكون منهم الفنان المبدع .. والشاعر المتألق .. والقاضى العادل ..والفلاح العاشق لأرضه .. والعامل الخلاق .

ولقد تمنيت بينى وبين نفسى لو أننا استطعنا أن نخلصهم من كثير من أخطائنا وأن نحميهم من نيران صراعاتنا .. وأن نبتعد بهم عن مناطق تجاوزاتنا ..

تمنيت لو أننا تعاملنا مع المستقبل دون أن يحمل أعباء ماضينا وهى ثقيلة .. ولو أننا رأينا فيهم براءتنا التى كنا يوما نحبها .. وأحلامنا التى لانعرف هل خذلتنا .. أم خذلناها ..

وأن نحفظ لهم بعض ذكرياتنا التى يمكن أن تكون لهم زادا فى رحلتهم مع قرن جديد من الزمان .. وعالم جديد تغيرت كل ملامحه .. وإنسان جديد فى كل شيء .. ابتداء بعقله الواعى .. ووجدانه المتجدد.

وجلست وحيدا مع ٢٤ مليون طفل ورأيت فى وجه كل واحد منهم ملامح ابنى .. وبراءة ابنتى .. وحلمت معهم بوطن أكثر شموخا .. وإنسان أكثر وعيا .. ومستقبل أكثر أملا .

تخيلت نفسى وأنا أحلم بمستقبل هؤلاء الصغار .

تمنيت لو أن هؤلاء الأطفال حذفوا من ذاكرتهم كل معاركنا الوهمية وتاريخنا المزيف فى النصف قرن الأخير .. وتصورت لجنة محايدة من المؤرخين النبلاء .. وأقول النبلاء . وليس تجار الشنطة أو المزورين والمزيفين وكذابى الزفة .. ورأيت هذه اللجنة وهى تنقى تاريخ مصر فى الخمسين عاما الأخيرة وتبقى منه الحقائق الثابتة المظلم منها والمضيء .. وتسقط المهاترات وتصفية الحسابات والأكاذيب والخطب المنبرية والنفاق الصاخب .. والابتذال بكل صوره وألوانه .

تمنيت أن يقرأ هؤلاء الصغار تاريخا يعلمهم الأمانة وينمى فيهم إيمانا حقيقيا بهذا الوطن دون تزيد أو تهويل .

تمنيت لو أننا وضعناهم جميعا أمام عيوننا ورسمنا لهم مستقبل وطن وليس مستقبل أسرة .. وأمانة أمة وليس أمانة طبقة .. وتصورنا كل طفل منهم وهو يشعر أنه امتلك فى هذا الوطن شيئا .. إن مشكلة أجيال الآباء الآن أنهم يفكرون تحت أقدامهم .. كل أب لم يعد يرى فى الحياة شيئا غير أبنائه وأسرته .. وهذا حق مشروع للأب والأبناء .. ولكن أن يضع مجموعة أفراد مستقبل أمة فى أيديهم ليحددوا من خلاله مستقبل أبنائهم فهذه كارثة .

أتمنى أن نتخلى قليلا عن جوانب الأنانية فينا ونفكر فى ٢٤ مليون طفل ولانفكر فقط فى تأمين مستقبل أبنائنا .. إن هذا الوطن ملك لهؤلاء جميعا .. ولاينبغى أبدا أن يكون ملكا لقلة من أبنائه تحتكر المستقبل فيه وتصادر الغد .

كان كل واحد منا يوما يحلم باسم المجتمع .. أن يغير فيه شيئا .. أن يحقق معه حلما .. أن يضع فى هذا البناء الشامخ جدارا يحمل اسمه .. ومنذ سيطرت علينا هيستيريا الأنانية تقلصت أحلامنا وأصبح كل واحد منا يفكر فى أبنائه ويحلم لأهل بيته .. وجلس الملايين على الأرصفة لايجدون الآباء الذين يحلمون لهم لأن سراديب العجز لايمكن أن تصنع لهم حلما .

تمنيت لو أن هؤلاء الأطفال لم يحملوا أمراضنا الفكرية .. وخنادقنا الإيدلوجية .. فقد لعبنا على كل اتجاه .. وأكلنا على كل الموائد .. مابين يمين ويسار .. وشيوعى وأصولى .. وإرهابى وتنويرى .. ورقصنا على كل الحبال السياسية والفكرية .. اشتراكيين وانفتاحيين ورأسماليين وانتهازيين وتطبيعيين وانغلاقيين .

لو أن الملايين القادمة من أطفالنا تخلصوا من لعنة تجاربنا لكان حظهم أفضل .. فلم نجن من هذه الصراعات غير الندامة والسطحية وتقطيع الجلاليب .. وامتهان كل ماهو جميل ورائع فى حياتنا .. ورغم رحيل العمر مازلنا حتى الآن ننصب كل يوم سركا مثل سرك الموالد حيث يعلو الضجيج ويرتفع الصخب وكل واحد يحاول قتل الآخر أو تدميره رغم أننا جميعا خاسرون .

أتمنى أن يدرك أطفالنا أن الحرية أعظم شىء فى الحياة .. وأن حريتى تنتهى عند أبواب الآخرين .. وأن الحرية لاتتجزأ كما يحدث فى العالم النامى .. فليست هناك حرية مقيدة .. والقيد الوحيد هو ضمير الإنسان الواعى وفكره المستنير .

اما مذاهب الحرية التى يصوغها ترزية القوانين حسب المقاسات المطلوبة فهى أكذوبة كبرى يمكن أن تضلل الناس بعض الوقت ولكنها لن تضللهم طوال الوقت .

أتمنى أن تنمو عقول هؤلاء الأطفال فى ظل ثقافة واعية تدرك قيمة الماضى بكل جذوره العميقة ..وتدرك قيمة الحاضر بكل أحلامه .. وتدرك قيمة المستقبل بكل جوانب التغير فيه .. لا أتمنى لهم ثقافة تسطح العقول وتقطع الجذور وتمتهن القيم .. أريد لهم ثقافة تهتم ببناء الإنسان أكثر من اهتمامها ببناء الجدران .. لأن قصور العالم لم تصنع يوما مبدعا كبيرا ، وأموال الدنيا كلها لاتستطيع أن تخلق فنانا كبيرا أو مبدعا عظيما ..

وكلما شاهدت التسطيح الثقافى الذى نعيشه شعرت بحجم العبء الذى سيتحمله هؤلاء الأطفال ، فالثقافة ليست مهرجانات واحتفالات وفنادق ووفودا مسافرة ووفودا قادمة .. الثقافة أن أواجه التخلف الذى أصاب عقول شبابنا فى الريف وترك خفافيش الظلام تعبث فى عقولهم .. والثقافة أن أواجه هذا الظلام الكاسح الذى اجتاح العقول وأفسد الضمائر.

أتمنى أن نفكر فى هؤلاء الأطفال الذين يقترب عددهم من نصف سكان مصر .. وهم جزء من حاضرها وكل مستقبلها .. وأن نقدم لهم إعلاما يشارك فى بناء وجدان سليم وعقل واع .. إن هذا الساحر الصغير الذى يسمى التليفزيون يحمل الآن مسئولية تشكيل هذه الملايين فى عقلها وسلوكها ..وثقافتها .. وانتمائها .. ونظرتها للحياة .. فماذا نحن بهم فاعلون !

أتمنى أن تعود المدرسة بكل دورها العريق فى تشكيل مستقبل مصر .. ابتداء بالمكتبة .. وانتهاء بالملاعب .. وقبل هذا كله أن تعود تلك العلاقة الحميمة بين المدرس والأبناء فيرون فيه القدوة ويرى فيهم الحلم .. ولن يكون ذلك أبدا بالقرارات والتوصيات والبرامج ولكنه يتحقق بالدرجة الأولى بصحوة الضمير ..

أتمنى أن نعد هذا الجيل من الأبناء الإعداد السليم .. تاريخ بلازيف .. دين بلا شطط . إيمان عميق بقيمة الوطن والإنسان ..

أبناء بلا تاريخ شجرة بلا جذور ..

وأطفال بلا عقيدة .. إنسان من فراغ

وإنسان بلا انتماء أرض بلا بشر ..

أتمنى أن يخرج هؤلاء الأطفال يوما فى طابوربطول مصر وعرضها يقفون جميعا أمام صناديق الانتخابات يختارون بكامل حريتهم من يحكمهم ومن يحدد مسيرة مستقبلهم بلا بطاقات انتخابية مزورة أو صناديق فارغة ، وبلا استفتاءات أو تجاوزات أو مصادرة ..

وأن يختاروا برلمانا حرا قادراً على مواجهة عصره بلا ترزية قوانين أو طعون انتخابية أو وجوه مكررة سئمنا ملامحها .

أتمنى أن يخرج من صفوف هؤلاء الأطفال كتاب يؤمنون بقدسية الكلمة .. وفنانون يدركون مسئولية الفن فلا يرقصون على كل الحبال

ولايصبحون كألوان الطيف التى تطارد عيوننا كل صباح ، ولايلبسون كل يوم قناعا جديدا ..

أربعة وعشرون مليون طفل فى مصر الآن تقع أقدارهم على عاتق جيل يحكمها الآن سلطة وفكرا وسلوكا .. وأتمنى أن نحميهم من كل ألوان الدمار النفسى والجسدى والإنسانى .

ربما كانت هذه أكبر نسبة من الأطفال يضمها مجتمع فى تاريخنا المعاصر ، وقد يتساءل البعض : كيف نوفر لهم الطعام والتعليم والسكن والصحة .. ويجب أن نتساءل فى نفس الوقت كيف نوفر لهم العقل السليم والوجدان الواعى والضمير الحى ؟ وكيف يشعر كل واحد منهم أنه سيمتلك شيئا فى مستقبل هذا الوطن قبل ان يلتهم طوفان الخصخصة كل شىء فيه .

هذه أحلام دارت فى رأسى وأنا أقرأ هذا الخبر الصغير فى الصحف .. إن فى مصر ٢٤ مليون طفل .. وربما لا أرى معهم هذه الأحلام وقد تحققت ، ولكن يكفى أننى حلمت معهم ؟

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

مؤلفات الشاعر
فاروق جويدة

- أوراق من حديقة أكتوبر «ديوان شعر» ١٩٧٤ .
- حبيبتى لا ترحلى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٥ .
- أموال مصر كيف ضاعت «اقتصاد»
  الطبعة الأولى - ١٩٧٦ .
- ويبقى الحب «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٧ .
- وللأشواق عودة «ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- فى عينيك عنوانى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٩ .
- الوزير العاشق «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨١ .
- بلاد السحر والخيال «أدب رحلات »
  الطبعة الأولى ١٩٨١ .
- دائما أنت بقلبى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨١ .
- لأنى أحبك «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٢ .
- شىء سيبقى بيننا «ديوان شعر» ١٩٨٣ .

- طاوعنى قلبى فى النسيان « ديوان شعر »
  الطبعة الأولى ١٩٨٦ .
- لن أبيع العمر « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٨٩ .
- زمان القهر علمنى « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٠ .
- كانت لنا أوطان « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩١ .
- آخر ليالى الحلم « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٣ .
- قالت « خواطر نثرية » الطبعة الأولى ١٩٩٠ .
- شباب فى الزمن الخطأ الطبعة الأولى ١٩٩٢ .
- دماء على ستار الكعبة « مسرحية شعرية » الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- الخديوى « مسرحية شعرية » الطبعة الأولى ١٩٩٤ .
- فاروق جويدة « المجموعة الكاملة ».
- ألف وجه للقمر « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٧
- عمر من ورق « خواطر نثرية » الطبعة الأولى ١٩٩٧
- قضايا ساخنة جداً الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ٢٥٨١ / ٩٧

I. S. B. N. 977 - 215 - 213 - 4
